
أدب الموعظة


تأليف
محمد بن إبراهيم الحمد


دار ابن خزيمة

ⓒ دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد، محمد بن إبراهيم

أدب الموعظة.

١١٦ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٨ ـ ٤٠ ـ ٨٨٩ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الوعظ والإرشاد أ ـ العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٢٤/٢٩٦

رقم الإيداع: ٢٩٦/ ١٤٢٤

ردمك: ٨ ـ ٤٠ ـ ٨٨٩ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

دار ابن خزيمة

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية، الرياض، الملز

شارع الإحساء، غرب حديقة الحيوان

هاتف: ٤٧٦٩٩٣٢/٤٧٣٠٧٨٨ فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥

ص.ب ٢٧٩٧١ الرمز البريدي: ١١٤٢٧

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن الإسلام دين يدعو إلى أقوم محجة، ويرمي إلى أشرف غاية.

وما دعوته إلا هداية الناس إلى سبيل الحق، وتنبيههم إلى مكان الفضيلة.

وما غايته إلا أن يحيا الناس حياة طيبة في العاجل، ثم يفوزوا في الآخرة بسعادة خالدة، وعطاء غير مجذوذ في الآجل.

وللحق نور باهر، وللفضيلة جمال ساحر، ولكنَّ النفوسَ الناشئةَ في بيئة خاسرة، أو الغارقةَ في أهواء سافلة يقف أمامها الحقُّ فتخاله باطلاً، وتتعرض لها الفضيلةُ فتحسبها شيئاً منكراً؛ فلا يكفي في دعوة الحق أن يطرق الداعي بها المجالس، ويصدع بكلمة الحق من غير أن يشدَّ أزرها بالحجة، ويتخير لها الأسلوب الذي يجعلها مألوفةً للعقول، خفيفةَ الوقع على الأسماع.

وفي القرآن الكريم ما يدل على أن الدعوة الصادقة لا يثبت أصلها، وتمتد فروعها، وتؤتي ثمرها -إلا أن يقوم بناؤها على أساس الحجة، ويذهب بها الداعي كل مذهب حكيم، ويأخذ فيها بكل أدب جميل.

وشواهد ذلك في القرآن كثيرة، قال الله -تعالى-: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ النحل: ١٢٥.

وكذلك دعوة النبي ﷺ إلى الإسلام؛ فإنها كانت محفوفة بما يقرب العقول إلى قبولها، وتألف النفوس إلى سماعها؛ فكان ﷺ يراعي في إبلاغها

الطرق الكفيلة بنجاحها؛ فيورد لكل مقامٍ مقالاً يناسبه، ويكسو كل معنىً من المعاني ثوباً يليق به، ويخاطب كل طائفة على قدر عقولهم، ويلاقيهم بالسيرة التي هي أدعى إلى إقبالهم، وأسرع أثراً في صرفهم عن غوايتهم.

ولا ريب أن الوعظ عمل جليل، وله -في نظر الشارع- مقام رفيع.

فالوعظ هو الدعوة إلى ما فيه خير وصلاح، والتحذير مما فيه شر وفساد.

والواعظ هو الذي يرشد الجاهلين، وينبه الغافلين، ويعالج النفوس الطائشة مع أهوائها؛ ليعيدها إلى فطرتها السليمة من الإقبال على الفضائل، والترفع عن الرذائل.

ولكنَّ القيامَ بهذا العمل جهادٌ يحتاج إلى ألمعيَّة مهذبة، ودراية بالطرق الحكيمة، علاوة على العلم الذي يُميِّز به بين الحق والباطل، ويفرِّق به بين المعروف والمنكر.

ثم إن العلم والنباهة، وحكمة الأسلوب لا تأتي بثمرتها المنشودة إلا أن يكون الواعظ طيب السريرة، مستقيم السيرة.

هذه هي آداب الموعظة، وأدواتها على سبيل الإجمال.[1]

أما تفصيل ذلك فسيأتي في ثنايا الصفحات التالية -إن شاء الله-.

وسيلحظ القارئ الكريم أن بعض تلك الآداب داخل في بعض، وأن بعض الآثار يصلح إيراده في أكثر من موضع؛ فلهذا قد يُجْمل الكلام في موضع، ويُفَصَّلُ في موضع آخر.

ثمَّ إن تلك الآدابَ شاملة لأدب الواعظ في نفسه، وأدبه في موعظته،

---

١ - انظر إلى كتاب: محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١١٠ - ١١١، وكتاب الدعوة إلى الإصلاح ص٦٤ - ٦٥، وكلاهما للشيخ محمد الخضر حسين.

وطريقة عرضه.

وقبل الدخول في تفصيل تلك الآداب يحسن الوقوف على تعريف الموعظة، وورودها في القرآن، وبيان مقاصدها وحِكَمِها.

فعسى أن تكون تلك الصفحات نافعة مباركة، وأن يكتب الله لها القبول، ولصاحبها الإصابة والإخلاص؛ إنه سميع قريب، والله المستعان وعليه التكلان، والحمد لله رب العالمين.

محمد بن إبراهيم الحمد
٥ / ٨ / ١٤٢٣
الزلفي ١١٩٣٢
ص.ب: ٤٦٠
www.toislam.org

❖❖❖

تعريف الموعظة

الموعظة في اللغة: مصدر الفعل وَعَظ.

قال ابن فارس رحمه الله: «الواو والعين والظاء كلمة واحدة؛ الوعظ التخويف، والعِظَة الاسم منه»[١]

وقال ابن منظور رحمه الله: «الوعظ والعظة والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب. قال ابن سيدة: هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب».[٢]

وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «الوعظ زجرٌ مقترنٌ بتخويف، قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب».[٣]



١ ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦ / ١٢٦.

٢ ـ لسان العرب لابن منظور ٧ / ٤٦٦.

٣ ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص ٥٦٤.

ورود الموعظة في القرآن الكريم [1]

ورد لفظ الموعظة في القرآن على ثلاثة عشر وجهاً، وهي كما يلي:

١ ـ أوَعظت ٢ ـ أعظك ٣ ـ أعظكم ٤ ـ تَعظون ٥ ـ يعظكم

٦ ـ يعظه ٧ ـ عِظهم ٨ ـ فعظوهن ٩ ـ توعظون ١٠ ـ يوعظ

١١ ـ يوعظون ١٢ ـ الواعظين ١٣ ـ موعظة.

وإليك الآيات التي وردت في ذلك:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ الشعراء: ١٣٦.

وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ هود: ٤٦.

وقال: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾ سبأ: ٤٦.

وقال: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ الأعراف: ١٦٤.

وقال: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٣١.

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ النساء: ٥٨.

وقال: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل: ٩٠.

وقال: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ ﴾ النور: ١٧.

وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ لقمان: ١٣.

وقال: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾ النساء: ٦٣.

وقال: ﴿ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ ﴾ النساء: ٣٤.

---

١ ـ انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبدالباقي ص ٩٢٣.

وقال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ المجادلة: ٣.

وقال: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ البقرة: ٢٣٢.

وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الطلاق: ٢.

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ النساء: ٦٦.

وقال: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ٦٦.

وقال: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ البقرة: ٢٧٥.

وقال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران: ١٣٨.

وقال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ المائدة: ٤٦.

وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ الأعراف: ١٤٥.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يونس: ٥٧.

وقال: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود: ١٢٠.

وقال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ النحل: ١٢٥.

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ النور: ٣٤.

❖❖❖

مقاصد الموعظة وحكمها

الموعظة باب من أبواب الدعوة إلى الله، وأسلوب من أساليب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ويحسن ههنا إيراد مقاصد الموعظة وحكمها؛ حتى لا يُظَن أنها شرعت لمصلحة معينه فإذا فاتت تلك المصلحة ظُنَّ أن الموعظة لم تؤتِ ثمرتها.

ويمكن إجمال تلك المقاصد والحكم بما يلي: [1]

١- إقامة حجة الله على خلقه: كما قال -تعالى-: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ النساء: ١٦٥.

٢- الإعذار إلى الله -عز وجل- والخروج من عهدة التكليف: قال الله -تعالى- في صالحي القوم الذين اعتدى بعضهم في السبت: ﴿ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ الأعراف: ١٦٤.

وقال -عز وجل-: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ الذاريات: ٥٤.

٣- رجاءُ النفع للمأمور: كما قال -تعالى-: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الأعراف: ١٦٤.

وقال -عز وجل-: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات: ٥٥.

٤- رجاء ثواب الله - عز وجل -: إذ الدعوة باب عظيم من أبواب البر.

٥- الخوف من عقاب الله -تبارك وتعالى-: إذ إنَّ تَرْكَ الدعوة مُؤذن بالعقوبة.

---

١ - انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢ / ٢٥٥، وأضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٢ / ١٧٦.

قال الله -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ... ﴾ المائدة: ٥٤.

وقال: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ محمد: ٣٨.

٦- النصيحة للمؤمنين: والرحمة بهم، ومحبة الخير لهم، والرغبة في إنقاذهم مما أوقعوا به أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وهذا قريب من الثالث.

٧- إجلال الله وإعظامه، ومحبته: وأنه أهلٌ لأن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، وأن يُفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال.



أدب الموعظة

الوعظ عمل جليل -كما مر- والناس بحاجة ماسة إليه، والقائمون بالوعظ بحاجة إلى ما يذكرهم بنبل غايتهم، والسبل المعينة لهم على القيام برسالتهم.

وقد مضى في المقدمة إجمال لآداب الموعظة، وفيما يلي تفصيلها.

١ - **التحلي بالتقوى وإخلاص النية:** وذلك أمر يستمده الواعظ من قوة الإيمان بأن الله يعلم ما يُسِرُّ الناس وما يعلنون، ومِنْ عِلْمِه بأن الإخلاص عليه مدار العمل، ومن تَيَقُّنِه بأن دعوته إلى فعل شيء هو تاركه أو إلى ترك شيء هو يفعله -لاتتجاوز الآذان إلى القلوب، بل قد تذهب كما يذهب الزبد جفاءًا.

وقد أشار القرآن المجيد إلى أن داعي الناس إلى معروف لايفعله جدير بالتوبيخ، قال -تعالىٰ-: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة:٤٤.

وقال -عز وجل-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ الصف.

والتقوى هي التي تجعل الواعظ مخلصاً فيما يأمر به، أو ينهى عنه.

وللإخلاص أثر كبير في نجاح الموعظة، وانشراح الصدور للانتفاع بها على أي حال.

والتقوى الصادرة عن التفقه في الدين بحق هي التي تكسو الواعظ وقاراً، وحسنَ سمتٍ غير مصطنع، فتمتلىء القلوب بمهابته؛ فإذا ألقى موعظةً ذهبت توّاً إلى القلوب، وأثمرت كَلِماً طيباً، وعملاً صالحاً، وخلقاً فاضلاً.

ولهذا يحسن بالواعظ أن يتعاهد إيمانه، ويُعِزَّ نفسه، ويصونَ علمه، وأن يترفع عن السفاسف، وأن يجانب مواطن الرِّيب، ومواضعَ المهانة، وأن لا يسير إلا على ما يمليه الدين، وتقتضيه الحكمة والمروءة.

وجدير به أن يكون ذا نفس زكية، وساحة طاهرة نقية؛ حتى لا يكون الخلل حائلاً بينه وبين هداية الناس.

ولا يعني ذلك أن يكون معصوماً مبرأً من كل عيب؛ إذ هو بشر، وما كان لبشر أن يدعي العصمة، أو الصواب فيما يقول، ويفعل إلا الأنبياء فيما يبلغون به عن ربهم -جل وعلا-.

ولا يفهم من ذلك -أيضاً- أن يَدَعَ الإنسانُ الوعظَ إذا كان مقصِّراً في بعض الطاعات، أو مُلِمَّاً ببعض المخالفات.

بل عليه أن يأمر وينهى ولو كان كذلك؛ فترك أحد الواجبين ليس مسوغاً لترك الآخر.

إذا لم يعظ في الناس من هو مذنبٌ فمن يعظ العاصين بعد محمد

قال الحسن لمطرف بن عبدالله -رحمهما الله-: «عِظْ أصحابك، فقال مطرف: إني أخاف أن أقول مالا أفعل.

قال الحسن: يرحمك الله، وأيُّنا يفعل مايقول؟ يود الشيطان لو ظفر منا بهذا؛ فلم يأمر أحد بمعروف، ولم ينه أحد عن منكر».[1]

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: «لو كان المرء لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء -ما أمر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر».[2]

قال الإمام مالك رحمه الله معلقاً على مقولة سعيد بن جبير: «وصدق سعيد؛

١-٢ تفسير القرطبي ١ / ٣٦٧.

ومن ذا الذي ليس فيه شيء»[١].

وقال الطبري رحمه الله: «وأما من قال: لا يأمر بالمعروف إلا من ليست فيه وصمة فإن أراد الأَوْلَى فجيِّد، وإلا فيستلزم سدَّ باب الأمر بالمعروف إذا لم يكن هناك غيره»[٢].

وقال ابن حزم رحمه الله: «ولو لم ينه عن الشر إلا من ليس فيه شيء منه، ولا أمر بالمعروف إلا من استوعبه لما نهى أحد عن شر، ولا أمر أحد بخير بعد النبي ﷺ»[٣].

وقال النووي رحمه الله: «قال العلماء: لا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال، ممتثلاً ما يأمر به، مجتنباً ما ينهى عنه.

بل عليه الأمر وإن كان مُخِلاً بما يأمر به، وإن كان متلبساً بما ينهى عنه؛ فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه، وينهاها، وأن يأمر غيره وينهاه؛ فإذا أخلَّ بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر؟»[٤].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله بعد أن ساق بعض الآثار الواردة في ذم من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويرتكبه: «واعلم أن التحقيق أن هذا الوعيد الشديد الذي ذكرنا من اندلاق الأمعاء في النار، وقرض الشفاه بمقاريض من النار ليس على الأمر بالمعروف، وإنما هو على ارتكاب المنكر عالماً بذلك، ينصح الناس عليه؛ فالحق أن الأمر غير ساقط عن صالح ولا طالح، والوعيد على المعصية لا على الأمر بالمعروف؛ لأنه في حد ذاته ليس فيه

---

١ ـ تفسير القرطبي ١ / ٣٦٧.

٢ ـ فتح الباري لابن حجر ١٣ / ٥٣.

٣ ـ الأخلاق والسير لابن حزم ص ٩٢.

٤ ـ شرح صحيح مسلم للنووي ٢ / ٢٣.

إلا الخير». [١]

ولا يفهم مما سبق أنه لا بأس على الواعظ في ترك المعروف، وفعل المنكر، بل يجب عليه فعل المعروف، وترك المنكر، بل يجب عليه أن يكون أول ممتثل لما يأمر به، وأول منتهٍ عما ينهى عنه.

٢ـ **العلم**: فَعِلْم الواعظ بما يقول هو الذي يجعل الموعظة نقيةً من إيراد الأحاديث الموضوعة، أو القصص المنبوذة، أو تحسين البدع، أو إضلال الناس.

قال الله ـعز وجل ـ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يوسف:١٠٨.

فلا بد للواعظ أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه من فعل أو ترك.

وأن يكون عالماً بحال المدعو، ولهذا لما بَعَثَ الرسول ﷺ معاذاً ﷺ إلى اليمن قال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب» الحديث. [٢]

وما ذلك إلا ليعرف حالهم؛ ليستعد لهم.

ومن البصيرة ـأيضاًـ أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة، وأساليبها.

ولا يفهم من ذلك أنه لابد للواعظ ان يكون عالماً متبحراً، وإنما المقصود ألا يدعو إلا بما يعلم، وألا يتكلم بما لا يعلم. [٣]

قال النبي ﷺ : «بلغوا عني ولو آية». [٤]

ومما يتعين على الواعظ معرفته والوقوف عليه ـالنظر في المصالح والمفاسد.

وسياتي بيانٌ وتفصيلٌ لذلك في الصفحات التالية.

---

١ ـ أضواء البيان ٢ / ١٧٣.

٢ ـ رواه البخاري (١٤٥٨) و(١٤٩٦) و (٧٣٣١)، ومسلم (١٩)

٣ ـ انظر الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات للشيخ محمد بن عثيمين ص ٢٦ ـ ٣١

٤ ـ البخاري (٣٤٦١).

٣ـ لين الجانب، وبسط الوجه، والإحسان إلى الناس: فالناس يحبون لِين الجانب، وبسط الوجهِ، والقلوب تُقْبل على من يتواضع لها، وتنفر ممن يزدريها، ولا يُكَلِّمها إلا من عَلَ.

ومن الوسائل التي لها أثر في تَأَلُّف الجاهلين أو المفسدين، وتهيئتهم إلى قبول الإصلاح ـ بسط المعروف في وجوههم، والإحسان إليهم بأي نوع من أنواع الإحسان، وإرضاؤهم بشيء من متاع هذه الحياة الدنيا؛ فإن مواجهتهم بالجميل، ومصافحتهم براحة كريمة ـ قد يعطِّف قلوبهم نحو الداعي، ويمهد السبيل لقبول ما يَعْرِضُه من النصيحة.

والنفوس مطبوعَةٌ على مصافاة من يُلبسها نِعْمةً، ويُفيضُ عليها خيراً.

ولمثل هذه الحكمة ذكر الله في القرآن من مصارف الزكاة صِنْفَ المؤلفة قلوبُهم.

وكان النبي ﷺ يُؤْثِرُ بعض حديثي العهد بالإسلام بجانب من المال؛ للاحتفاظ ببقائهم على الهداية، يفعل ذلك حيث يظهر له أن إيمانهم لم يرسخ في قلوبهم رسوخَ ما لا تزلزله الفتن.

وإلى أمثال هؤلاء أشار ـعليه الصلاة والسلامـ بقوله: «إني لأعطي الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه؛ خشية أن يكبَّه الله في النار».[(١)]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «كما كان إعطاؤه ﷺ المؤلفة قلوبهم مأموراً به في حقه وجوباً أو استحباباً، وإن لم يكن مأموراً به لأحد.

كما كان مزاحه مع من يمزح معه من الأعراب والنساء والصبيان؛ تطييباً لقلوبهم، وتفريحاً لهم ـمستحباً في حقه يثاب عليه وإن لم يكن أولئك

---

١ ـ رواه البخاري (٢٧ و ١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠).

مأمورين بالمزاح معه، ولا منهيين عنه.

فالنبي ﷺ يبذل للنفوس من الأموال والمنافع ما يتألفها به على الحق المأمور به، ويكون المبذول مما يلتذ به الآخذ ويحبه؛ لأن ذلك وسيلة إلى غيره»[١].

ولهذا يحسن بالواعظ أن يكون ليِّن العريكة، وممن يَألَفُ ويُؤْلَفُ، وألا يكون جافي الطبع، قاسي القلب، متعالياً على السامعين.

ويجدر به أن يترفع عن العبارات المشعرة بتعظيم النفس، كحال من يكثر من إدارج ضمير المتكلم (أنا) أو ما يقوم مقامه كأن يقول (في رأيي)، أو (حسب خبرتي)، أو (هذا ما توصلت إليه) ونحو ذلك.

وأَجْدَر بالبعد عن ذلك ما كان فيه تفخيم للنفس كالإتيان بضمير الجمع، كأن يقول: (هذا رأينا) و (هذا ترجيحنا)، أو (هذا ما توصلنا إليه).

ومن ذلك أن يكرر كلمة: (نَقُول) و(قلنا)، ونحو ذلك من العبارات الفجة التي تنم عن نقص وغرور، خصوصاً إذا صدرت ممن ليس له مكانة.

فهذا كله مجلبة لتباعد الأنفس، وتناكر الأرواح، وقلة التأثير.

وبدلاً من ذلك يحسن به أن يستعمل الصيغ التي توحي بالتواضع، وعزو العلم لأصحابه، كأن يقول: (ويبدو للمتأمل كذا وكذا)، أو يقول: (ولعل الصواب أن يقال: كذا وكذا) ونحو ذلك من العبارات المشعرة بالتواضع، واهتضام النفس.

قال ابن المقفع: «تحفظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب، وطبْ نفساً عن كثيرٍ مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي؛ مداراةً؛ لئلا

---

١ ـ الاستقامة لابن تيمية ٢/ ١٥٥.

يظن أصحابك أن دأبك التطاول عليهم». [١]

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي ﷺ : «واحذر غاية الحذر من احتقار من تجالسه من جميع الطبقات، وازدرائه، أو الاستهزاء به قولاً، أو فعلاً، أو إشارةً، أو تصريحاً، أو تعريضاً؛ فإن فيه ثلاثة محاذير:

أحدهما: التحريم والإثم على فاعله.

الثاني: دلالته على حمق صاحبه، وسفاهة عقله، وجهله.

الثالث: أنه باب من أبواب الشر، والضرر على نفسه». [٢]

٤- الصبر والحلم: فالواعظ محتاج لذلك أشد الحاجة؛ إذ هو مُعَرَّضٌ لما يثيره، ويحرك دواعي الغضب فيه.

ومن مواعظ لقمان -عليه السلام- لابنه وهو يعِظه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ لقمان: ١٧.

فلا يحسن بالواعظ أن يكون ضيِّق الصدر، قليل الصبر؛ ذلك أن الجماعات التي استشرى فيها الفساد كالمريض، والواعظ لها كالطبيب.

وكما أن المريض قد يدفعه جهله، أو سوء تصرفه إلى أن ينال الطبيب ببعض السوء -فكذلك الجماعات التي أنهكها الشر، واستحوذ عليها الشيطان؛ فقد يدفعها ذلك أن تنال طبيب الأرواح ببعض الأذى.

فإذا ضاق صدره، وقل احتماله تنغَّصت حياته، ولم يصدر عنه خير كثير، أو عمل كبير؛ فخير للواعظ -إذاً- أن يتلقى الأذى بصدر رحب، وأفق واسع، ونفس مطمئنة.

---

١ - الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ص ١٣٤.

٢ - الرياض الناضرة لابن سعدي ص ٤١٩.

وليعلم أن مهمته شاقة؛ فليستعد لها بالاستعانة بالله، وليداوِ كُلُومَ النفوس بالهدوء، وسعة الصدر، ولين الجانب، ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ فإن تلك الصفاتِ رُقْيَةُ النفوس الشرسة، وبلسمُ الجراحِ الغائرة

وليستحضر أنه ما وقف أمام الناس ليخاصمهم؛ فَيَخْصِمَهم، ولكنْ ليداويَ فسادهم، ويردَّ شاردهم؛ فليحرص على أن يؤلف القلوب والنفوس بتلك الصفات.

قال الله -تعالى- في وصف نبينا محمد ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران: ١٥٩.

وقال الله -عز وجل- له: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٩.

وهكذا كان -عليه الصلاة والسلام- فكان يعرض دعوته في لين من القول، وكان يأخذ بالحلم، والصبر، ويقابل الجاهل بالإعراض، والمسيء بالعفو أو الإحسان.

وإن أذىً كثيراً كان يلحقه من مشركي قريش وسفهائهم؛ فيلقاه بالصبر، ولا ينال من عزمه واسترساله في الدعوة ولو شيئاً قليلاً.

وكم من كلمة يرميه بها بعض المنافقين، أو بعض الجفاة من الأعراب، فيكون جزاؤها الصفح، أو التبسم، أو الإنعام.[١]

فإذا كان الواعظ على هذا النحو من المكارم أثمر وعظه، وحاز من العلياء كل مكان.

كان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يتمثل بهذه الأبيات:

---

١ ـ انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص.١١٣، والخطابة لأبي زهرة ص ١٦١ ـ ١٦٢.

الحلم والعلم خَلَّتا كرمٍ للمرء زينٌ إذ هما اجتمعا
صنوانِ لا يَسْتَتِمُّ حسنُهما إلا بجمع بذا وذاك معا
كم مِن وضيع سما به الحلم وال ـعلم فحاز السناء وارتفعا
ومن رفيع البنا أضاعهما أخمله ما أضاع فاتضعا [1]

٥- التجمل والعناية بالمظهر بلا إسراف: فهذا -وإن لم يكن من الصفات التي تقوم عليها الخطابة - أمرٌ يحسن العنايةُ به ؛ لأنه مطمح الأنظار.

والنظر يفعل بالقلب ما يفعله الكلام في السمع ؛ فهو من هذه الناحية لا ينقص اعتباره عن اعتبار الصفات الأصلية ؛ فيحسن بالواعظ أن يراعي ذلك، وأن يعتني بمظهره، وطيب رائحته، وما شاكل ذلك.

قال ابن حجر المكي ﷺ في معرض حديث له عن الرياء: «وقد يطلق الرياء على أمر مباح، وهو طلب نحو الجاه والتوقير بغير عبادة، كأن يقصد بزينة ثيابه الثناء عليه بالنظافة والجمالة، ونحو ذلك».

إلى أن قال: «وهذا مما تستمال به القلوب ؛ إذ لو سقط من أعينهم لأعرضوا عنه ؛ فلزمه أن يظهر لهم محاسنه ؛ لئلا يزدروه ؛ فيعرضوا عنه ؛ لامتداد أعين عامة الخَلْق إلى الظواهر دون السرائر ؛ فهذا قصده ﷺ وفيه قربةٌ أيُّ قربة، ويجري ذلك في العلماء ونحوهم إذا قصدوا لتحسين هيئتهم» [2].

فالتجمل والعناية بالمظهر -إذاً- أمر حسن ؛ فالله -عز وجل- جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

---

١ - الجامع لسيرة عمر بن عبدالعزيز للملاء، تحقيق د/ محمد البورنو ٢ / ٥٩٤.

٢ - الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر المكي ١ / ٤٤، وانظر إحياء علوم الدين للغزالي ٣/ ٣٠٠، والخطابة ص٤٧.

قال -عز وجل- : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ المدثر: ٤.

وقال النبي ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال».[١]

وإنما المحذور هو المبالغة في التجمل، وصرف الهمة للتأنق، واشتداد الكَلَف بحسن البزة؛ فهذا مما يقطع عن إصلاح النفس، ويدل على نقص الإنسان.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : «إياكم لبستين: لبسةً مشهورةً، ولبسة محقورة».[٢]

وقال بعض الحكماء: «البس من الثياب ما لا يزدريك العظماء، ولا يعيبك الحكماء».[٣]

وقال الماوردي ﷺ : «واعلم أن المروءة أن يكون الإنسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير إكثار ولا اطراح؛ فإن اطراح مراعاتها، وتركَ تفقُّدها مهانةٌ وذلةٌ، وكثرة مراعاتها وصرف الهمة إلى العناية بها دناءة ونقص.

وربما توهم من خلا من فضل، وعَرِي من تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة، والسيرة الفاضلة؛ لما يرى من تميزه على الأكثرين، وخروجه عن جملة العوام والمسترذلين.

وخفي عليه أنه إذا تعدى طوره، وتجاوز قدره كان أقبح لذكره، وأبعث على ذمه».[٤]

وخلاصة القول أن الشارع قد فوضَّ في أمر اللباس إلى حكم العادة، وما يليق بحال الإنسان؛ فإذا جرت العادة بلبس نوع من الثياب، وكان مستطيعاً

---

١ - رواه مسلم (٩١).

٢ - أدب الدنيا والدين للماوردي ص٣٥٤.

٣ - أدب الدنيا والدين ص ٣٥٥.

٤ - أدب الدنيا والدين ص ٣٥٤.

له، فعدل عنه إلى صنف أسفل منه أو أبلى ـقبح به الحال، وكره له؛ لأن بذاذة اللباس، ورثَّتَهُ مما تقذفها العيون، وتنشز عنها الطباع، فتلقي بصاحبها إلى الهوان، والالتفات إليه بألحاظ الازدراء.

وهذه الحال لا تليق بالواعظ؛ إذ هو صاحب حق، وداعية هدى؛ فلا يحسن به أن يخذل الحق الذي يحمله، والهدى الذي يدعو إليه.

وأما الخروج عن المعتاد، والتطلع إلى ماهو أنفس وأغلى فمرفوض ـكما مر ـ قال المعري:

وإن كان في لبس الفتى شرفٌ له فما السيف إلا غمده والحمائل [1]

بل تجد أكثر الناس يَستَخِفُّون بمن يتعدى طور أمثاله في ملبسه، ويعدونه سفهاً في العقل، وطيشاً مع الهوى. [2]

قال الخطيب البغدادي ﷺ: «وكما يكره لبس أدْوَن الثياب فكذلك يكره لبسُ أرفعها؛ خوفاً من الاشتهار بها، وأن تسمو إليه الأبصار فيها» [3]

٦- استعمال المداراة والبعد عن المداهنة: فالمداراة من أخلاق المؤمنين والمداهنة من صفات المنا فقين، والواعظ تحتاج إلى الأخذ با لأولى، والبعدِ عن الثانية.

وكثيراً ما يشتبه عند كثير من الناس هذان الخلقان؛ ذلكم أن حدود الفضائل تقع بمقربة من أخلاق مكروهة.

وهذه الحدود في نفسها واضحة جلية، إلا أن تمييز ما يدخل فيها مما هو

---

١ ـ شرح ديوان سقط الزند للمعري ص ٥٧.

٢ ـ انظر مناهج الشرف للشيخ محمد الخضر حسين ص ٥٠ ـ ٥١.

٣ ـ الجامع لأخلاق الراوي وأداب السامع للخطيب البغدادي ص ٣٨٢.

خارج عنها يحتاج إلى صفاءِ فطرةٍ، أو تربيةٍ تساس بها النفسُ شيئاً فشيئاً.

وكثيراً ما يتشابه على الرجل لأول النظر أمور؛ فلا يدري أهي داخلة في الفضيلة، أم هي خارجة عن حدودها؟

وربما سبق ظنه إلى غير صواب؛ فيخال ماهو من قبيل الفضيلة مكروهاً فيدعه، أو يعيب به غيره، أو يخال ما هو من قبيل المكروه فضيلة فيرتكبه، أو يمدح غيره عليه.

وهذا الشأن يجري في كثير من الأخلاق ومن ذلك -كما مر- خلق المداراة؛ إذ يشتبه بالمداهنة مع أنه يمتاز عنه امتياز الصبح من الدجى.[1]

وبما أن الحديث عن الموعظة وآدبها، وبما أن المداراة خلق فاضل يحتاجه العاقل في حياته، وأن المداهنة خلق دنيء يزري بصاحبه، وينزل به إلى دَرْك وسقوط - فإن معرفة المداراة وتمييزها عن المداهنة من الأهمية بمكان؛ حتى يسلك العاقل طريق المداراة، وينأى بنفسه عن المداهنة.

ولاريب أن الواعظ من أحوج الناس إلى ذلك؛ إذ هو يلاقي الناس، ويخالطهم، ويَعْرِض عقله كثيراً أمامهم؛ فهو محتاج إلى مُدَاراة الناس عموماً، ومُداراة زَمانه، ومُداراة مخالفيه.

«بعض معالم المداراة:»

ومما يمكن أن يُمَيَّز به بين هذين الخلقين أن تُذْكَر بعض المعالم لكل منهما، وهذه -أولاً- بعض معالم المداراة.

---

١ - انظر رسائل الإصلاح للشيخ محمد الخضر حسين ١ / ١٢٤.

ا ـ المداراة ترجع إلى حسن اللقاء وطيب الكلام، والتودد للناس، وتجنب ما يشعر بغضب أو سخط، كل ذلك من غير ثلم للدين في جهة من الجهات.

قال ابن بطال ﷺ «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك أقوى أسباب الألفة».[1]

ب ـ من المداراة أن يلا قيك ذو لسان، أو قلم عرف بنهش الأعراض، ولَمْزِ الأبرياء، فتُطْلِقَ له جبينك، وتحييه في حفاوة؛ لعلك تحمي جانبك من قذفه، أو تجعل لدغاتِه خفيفةَ الوقع على عرضك.

جاء في الصحيحين عن عروة عن عائشة ـرضي الله عنهاـ أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة».

فلما جلس تطلّق النبي ـصلى الله عليه وسلمـ في وجهه، وانبسط إليه، فلما انطلق قالت له عائشة: يا رسول الله! حين رأيت الرجل قلت له: كذا وكذا، ثم تطلّقت في وجهه، وانبسطت إليه؟

قال رسول الله ﷺ «يا عائشةُ! متى عهدتّني فحّاشاً؟ إن شر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة من تركه الناس؛ اتقاء شره»

وفي رواية «من تركه الناس، أووَدَعَهُ الناس؛ اتقاء فحشه».[2]

فلقاء رسول الله ﷺ لهذا الرجل المعروف بالبذاء من قبيل المداراة؛ لأنه لم يزد على أن لاقاه بوجه طلق، أو رَفَقَ به في الخطاب.

وقد سبق إلى ذهن عائشة ـرضي الله عنهاـ أن الذي بلغ أن يقال فيه «بئس

---

١ - فتح الباري ١٠ / ٥٤٥.

٢ - البخاري (٦٠٣٢) و(٦٠٥٤) و(٦١٣١)، ومسلم (٢٥٩١).

أخو العشير ة، وبئس ابن العشيرة» لا يستحق هذا اللقاء، ويجب أن يكون نصيبُه قسوةَ الخطاب، وعبوسَ الجبين.

ولكنَّ نَظَرَ رسولِ الله ﷺ أبعدُ مَدَىً، وأناته أطول أمداً؛ فهو يريد تعليم الناس كيف يملكون ما في أنفسهم؛ فلا يَظْهَر إلا في مكان أو زمان يليق إظهاره فيه.

ويريد تعليمهم أدباً من آداب الاجتماع، وهو رِفْقُ الإنسان بمن يقصد إلى زيارته في منزله، ولو كان شرُّه في الناس فاشياً.

على أن إطلاق الجبين لمثل هذا الزائر لا يمنع من إشعاره بطريق سائغ أنك غير راض عما يُشيعُه في الناس من أذىً، ولا يعوقك أن تعالجه بالموعظة الحسنة إلا أن يكون شيطاناً مريداً.

ج ـ مراعاة أعراف الناس، وعاداتهم ما لم تخالف الشرع: وهذا الأدب يتجلى عندما يعظ الإنسان في مكان غير المكان الذي عاش فيه وأَلِفه؛ فربما رَمَتْهُ الغربةُ في بلدٍ ما، فوجد خلائقَ أهلِ ذلك البلدِ وطباعَهم وعاداتهم على غير ما يألف؛ فيحسن به ـ والحالة هذه ـ أن يراعي ما عليه أهل ذلك البلد، وأن يتجنب في وعظه منافرتهم، أو مخالفتهم فيما اعتادوا عليه؛ فذلك من جميل المعاشرة، ومن حسن المداراة.

فدارِهم ما دمت في دارهم وأرضِهم ما دمت في أرضهم

وكل ذلك مشروط بألا يكون في عاداتهم محذور شرعي؛ فإن كان ثمَّ محذورٌ شرعيٌّ تعين تقديم الأمر الشرعي على كل عادة وعُرف مع مراعاة الأسلوب الأمثل في التنبيه على ما يخالف الشرع.

قال ابن حزم ﷺ : «وإياك ومخالفة الجليس، ومعارضةَ أهل زمانك فيما لايضرك في دنياك، ولا في أخراك وإن قلّ؛ فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة، والعداوة.

وربما أدى ذلك إلى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلاً».[1]

ولهذا ترك النبي ﷺ نقض الكعبة، مع رغبته في ذلك، وأن تكون على قواعد إبراهيم -عليه السلام- وما منعه من ذلك إلا خشيةُ ألا تحتمله قريش؛ لقرب عهدهم بكفر.

قال -عليه الصلاة والسلام-: «يا عائشة لولا أن قومك حديثٌ عهدُهم بكفر لنقضت الكعبة؛ فجعلت لها بابين: باب يدخل الناس، وبابٌ يخرجون».

وفي رواية عن عائشة -رضي الله عنها- قالت سألت النبي ﷺ عن الجَدْر أمن البيت هو؟

قال: «نعم»

قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟

قال: «إن قومك قَصُرَتْ بهم النفقة»

قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟

قال: «فعل ذلك قومك؛ ليدخلوا من شاءوا، ويمنعوا من شاءوا.

ولولا أن قومك حديثٌ عهدهم بالجاهلية؛ فأخاف أن تنكر قلوبهُم أن أدخل الجَدْر في البيت، وأن ألصق بابه بالأرض».[2]

د - من المداراة الا يستسلم الواعظُ لعوارضه النفسية من حبٍّ وبغض،

---

١ - الأخلاق والسير ص٦١.

٢ - رواه البخاري (١٢٦) و (١٥٨٤) و (١٥٨٥)، ومسلم (١٣٣٣).

ورضاً وغضب، واستحسان واستهجان؛ إذ لو سار على أن يكاشف الناس بكل ما يعرض له من هذه الشؤون في كل وقت وعلى أي حال - لاختل الاجتماع، ولانقبضت الأيدي عن التعاون، ولشاعت البغضاء بين الناس؛ فكان من حكمة الله في خلقه أن هيَّأ الإنسان لأدب يتحامى به ما يُحْدِثُ تقاطعاً، أو يدعو إلى تخاذل؛ ذلك هو أدب المداراة؛ فهو مما يزرع المودة، ويجمع القلوب المتنافرة.

هـ - من المداراة أن يلقى الواعظُ موعظةً أمام ذي يدٍ باطشة، فيمنحه جبيناً طلقاً، ويتجنب في حديثه ما يثير ذلك الباطش.

وهذا محمل قول أبي الدرداء ﷺ «إنا لَنَكْشُرُ في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لَتَلْعَنُهم».[1]

وفي هذا الأثر شاهد على أن التبسم في وجه الظالم؛ اتقاء بأسه ضربٌ من المداراة ولا يتعداه إلى أن يكون مداهنة.

و - المداراة ترجع إلى ذكاء الشخص وحكمته؛ فهو الذي يراعي في مقدارها وطريقتها ما ينبغي أن يكون؛ ذلك أن لأسباب العداوةِ مدخلاً في تفاوت مقادير المداراة، واختلاف طرقها.

ز- المداراة يُبتغى بها تأليفُ الناس في حدود ما ينبغي؛ فلا يُبْعِدك عنها

---

١ - أخرجه البخاري في صحيحه معلقاً في كتاب الأدب «باب المداراة مع الناس» بصيغة التمريض حيث قال «ويذكر عن أبي الدرداء...... »

وله طرق أ خرجها الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق ٥ / ١٠٢ وفي كل منها مقال، ولعل بعضها يشد بعضاً، فيكون السند حسناً لغيره.

قضاءً بالقسط، أو لقاء للنصيحة في رفق.

ح- وبالجملة فالمداراة خصلة كريمة، يحكمها الأذكياء، ولا يتعدى حدودها الفضلاء؛ فالنفوس المطبوعة على المداراة نفوس أدركت أن الناس خلقوا؛ ليكونوا في الائتلاف كالجسد الواحد، وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمةً على قدر ما فيها من حياة، ولا تنكر عضواً ركِّب معها في جسد إلا أن يصاب بعلة يعجز الأطباء أن يصفوا لها بعدُ دواءًا.

«بعض معالم المداهنة:»

وبعد أن اتضحت بعض معالم المداراة يحسن أن توضِّح بعضُ معالم المداهنة؛ فأليك شيئاً من ذلك.

أ- المداهنة هي إظهار الرضا بما يصدر من الظالم أو الفاسق من قول باطل أو عمل مكروه؛ فهي بلادةٌ في النفس، واستكانةٌ للهوى، وقبولُ ما لا يرضى به دينٌ، أو عقلٌ، أو مروءة.

ب- المداهنة خلق قذر، لا يَنْحطُّ به إلا من قل في العلم وزنه، أو من نشأ نشأةَ صغارٍ ومهانة.

ج- المهانة تضم بين جناحيها الكذب، وإخلاف الوعد، وقلة الحياء.

د- من المداهنة أن يثنيَ الرجل على الرجل في وجهه، فإذا انصرف عنه أطلق لسانه في ذمه.

هـ- من المداهنة أن يَدْخل الرجلُ على من يضطره الحال إلى الثناء عليه مع استغنائه عن الدخول عليه، ثم يبدأ بإطرائه ومدحه بما ليس فيه.

أما إذا اضطر الإنسان إلى الدخول على ذي قوة لا يخْلُص من بأسه إلا أن يسمعه شيئاً من المديح ـ فهو في سعة أن يمدحه بمقدار ما يَخْلُص من بأسه، ولا تُلْحِقُه هذه الحالة بزمرة المداهنين.

و ـ من المداهنة أن يجعل المداهنُ لسانه طوعَ بغيةِ الوجيه، فتراه يسبق هوى الوجيه، ويعْجَل إلى قول ما يشتهيه الوجيه، فيمدح ما يراه الوجيه حسناً، ويذم ما يراه الوجيه سيئاً؛ بغضِّ النظر عن قناعة هذا المداهن من عدمها.

ز ـ من المداهنة أن يجعل الإنسان لسانه طوع رغبة طائفته وأتباعه دونما نظر في رضا الخالق ـ جل وعلا ـ.

هذه هي المداهنة، وتلك أحوال أهلها يراوغون، ويخاتلون، ويخادعون، ويكذبون، ويسترون وجه الحقيقة الأبلج، ولايبالون بما يترتب على ذلك من عواقب.

أما الذين يعرفون ما في المداهنة من شر، ويحزنهم أن يظهر الشر على من في استطاعته الخير ـ فيربأون بألسنتهم أن تساير في غير حق، ويؤثرون نصح الأمة بكافة طبقاتها بأبلغ أسلوب على أن يُزَيِّنوا للناس ما ليس بزين؛ بعلمهم بأن المداهنة خيانة، وتفريط في أداء الأمانة، وأنها ضررٌ محضٍ على أصحابها وعلى من يسايرونه.

ثم إن الناسَ كبيرَهم وصغيرَهم يكرهون المداهنة، ويملأون أعينهم باحترام من يوقظهم لوجه الخير إذا كانوا في غفلة، ولوجه الشر إذا اشتبه عليهم.

ولقد كان العلماء الأجلاء، والدعاة الصادقون يأخذون بسنة المداراة،

ولم يكونوا يتلطخون برجس المداهنة.

ولقد تظاهرت نصوص الشرع، وتظافرت أقوال العلماء والحكماء في الحث على المداراة، وذم المداهنة، وقد مضى شيء من ذلك.

ومن ذلك ما أورده البخاري في صحيحه، حيث أورد باباً في كتاب الأدب قال فيه: «باب المداراة مع الناس».

وساق فيه أثر أبي الدرداء الماضي وحديثين.

قال الحسن ﷺ: «حسن السؤال نصف العلم، ومداراة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤونة».(١)

وقال العتَّابي: «المداراة سياسة لطيفة، لا يستغني عنها ملِكٌ ولا سُوقةٌ، يجتلبون بها المنافع، ويدفعون بها المضار، فمن كثرت مداراته فهو في ذمة الحمد والسلامة».(٢)

وقال بعضهم: «ينبغي للعاقل أن يداري زمانه مداراة السابح في الماء الجاري».(٣)

وقال ابن حبان ﷺ: «من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يدرك، ولكن يَقْصِدُ العاقل رضا من لا يجد عن معاشرته بدّاً، وإن دفعه الوقت إلى استحسان أشياء من العادات كان يستقبحها، أو استقباح أشياء كان يستحسنها ما لم يكن مأثماً؛ فإن ذلك من المداراة، وما أكثر مَنْ دارى فلم

---

١ - عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/ ٢٢.

٢ - ٣- عين الأدب والسياسة، وزين الحسب والرياسة لعلي بن عبدالرحمن بن هذيل ص١٥٤.

يَسْلَم؛ فكيف توجد السلامة لمن لم يدارِ؟!».[١]

وإذا كان الأمر كذلك فإن على دعاة الإصلاح أن يراعوا هذا الجانب، وأن يحرصوا على تربية الناس على خلق المداراة؛ حتى تكون بلاد المسلمين منابت نشىء يميزون المداهنة من المداراة؛ فيخاطبون الناس في رقة وأدب، وشجاعة، ويحترمون من لايلُوث أسماعَهم بالملق، ولا يكتمهم الحقائق متى اتسع المقام؛ لأن يحدثهم بصراحة.[٢]

هذا وسيأتي مزيد بيان وأمثلة لهذه المسألة في فقرات آتية.

٧- أخذ الأُهْبة والاستعداد خصوصاً إذا كان الواعظ في بداياته: فعليه أن يُعِدَّ للكلمة جيداً، وأن يتدرب على إلقائها، ويحسن به أن يلقيها في أماكنَ بعيدةٍ عن حواضر العلم، أو في المساجد التي لا يوجد فيها أهل العلم والفضل؛ حتى لا يُرْتَجَ عليه، أو تُقَيِّدَهُ حبسة.

فإذا ألقى موعظته في هجرة، أو بادية، أو قرية يغلب على أهلها الجهل - كان ذلك أدعى لاسترساله في موعظته، وتدربه على الانطلاق.

ويحسن بالمربين أن يدربوا من تحت أيديهم على هذه الخصلة الشريفة، وأن يتعاهدوهم بالنصح، والتهذيب، والتوجيه؛ حتى يكونوا مشاعل هدى، ومصابيح دجى.

---

١ - روضة العقلاء لابن حبان ٧١-٧٢.

٢ - انظر تفاصيل الحديث عن المداراة والمداهنة في روضة العقلاء ص ٧٠-٧١، وفتح الباري لابن حجر ١٠ / ٥٤٤-٥٤٥، وعين الأدب والسياسة ص١٢٥-١٥٧، والدعوة إلى الإصلاح ص٥٠-٥٢ و ٧٤ ورسائل الإصلاح ١/ ٣١-١٣٨ و ٢ / ١٠٠، وسوء الخلق مظاهره -أسبابه- علاجه للكاتب ص ١٥٢-١٦٦.

٨ ـ **رياطة الجأش**: وهذه الخصلة تولد مع الإنسان، ويكتسبها ـ أيضاً ـ بالممارسة، والمران، والدُّرَية، كما أنها تتقوى بموجبات الإيمان.

فيجمل بالواعظ أن يتصف بهذه الخصلة الحميدة؛ حتى يعتاد لقاء الجمهور، والحديث إليهم بطلاقة ويسر.

ولا يجمل بالإنسان أن يسترسل مع ضعف قلبه، وقلة صبره، وخوفه من تهكم الناس؛ فليس من شرط الشجاعة ألا يجد الإنسان في نفسه الخوف من الكلام أو الإقدام؛ فذاك شعور يجده كل أحد إذا هو همَّ بعمل جديد، أو كبير.

بل يكفي في شجاعة الرجل ألا يَعْظُمَ الخوفُ في نفسه، حتى يمنعه من الإقدام، أو يرجع به إلى الانهزام.

ثم عليه بعد ذلك أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يحذر من تضخيم النتائج؛ فهب أنك تكلمتَ مرةً، فأخطأتَ، أو لم تُجِدْ؛ ماذا في الأمر؟

لاشيء؛ فكل أحد عرضة للخطأ بل إن الخطأ هو طريق الصواب؛ فلا تعظِّم شأن الخطأ في قلبك، ولا تبال بلمز الناس وعيبهم؛ فالسلامة منهم عزيزة المنال.

ثم إن الإخفاق ليس عاراً إذا بذل الإنسان جهده، ولا يعد المرء مُخفقاً إلا إذا تخلى عن المحاولة، وتقبَّل الهزيمة كأنها دائمة.

وبالجملة فإن الخطابة، ومقابلة الجمهور في الوعظ ضرب من ضروب الشجاعةِ الأدبيةِ، والشجاعةُ ـ عموماً ـ هي مواجهة الأمر عند الحاجة في ثبات، وليست مرادفةً لعدم الخوف ـ كما قد يُظَن ـ.

فهذا عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي ـ وحسبك به شجاعةً وإقداماً ـ يصف نفسه، ويصور حاله في ساحات الوغى، ويبين أن الخوف يداخله، ولكنه لا يحمله على الفرار، والإحجام؛ فلا ينقص ذلك من قدره؛ حيث يقول:

ولقد أجمع رجليَّ بها ... حذرَ الموت وإني لفرورْ
ولقد أعطِفها كارهةً ... حين للنفس من الموت هريرْ
كلُّ ما ذلك مني خُلُقٌ ... وبكلٍّ أنا بالروع جدير [١]

٩- **قوة الملاحظة:** لأجل أن يدرك الواعظ أحوال المخاطبين حال إلقاء موعظته أهُم مقبلون عليه فيسترسل في قوله، ويستمر في نهجه؟ أم هم معرضون عنه، فيتجه إلى ناحية أخرى يراها أقرب إلى قلوبهم وأدنى إلى مواطن التأثير فيهم، فيَحْسن بالواعظ أن يكون ذا نظرات فاحصة كاشفة؛ بحيث يقرأ من الوجوه خطرات القلوب، ومن اللمحات ما تكنه النفوس نحو قوله؛ ليجدد بذلك نشاطهم، ويذهب بفتورهم، ولتتصل روحه بأرواحهم. [٢]

١٠- **حضور البديهة:** لأن الواعظ قد تمر به أحوالٌ تُجْبِره على العدول عن كلمة إلى أخرى؛ فقد يُعِدُّ كلمةً، ويظن أنها تناسب هؤلاء القوم؛ فإذا رآهم، أو رأى بعضهم أدرك أنها لا تناسبهم.

وقد يقول كلاماً فيخشى أن يفهم على غير ما أراد وهكذا...

فإذا كان حاضر البديهة أمكنه تداركُ الخطأ، أو تغييرُ الموضوع، أو تلافي الإحراج.

وهذه الخصلة تكتسب بالتجارب، والنظر، والمِراس.

١١- **مراعاة المدة الزمنية للموعظة:** فمراعاة هذا الأدب من الأهمية بمكان؛ إذ هو مما يعين على الانتفاع بالموعظة، والإصغاء إليها بإقبال ونشاط.

ولا ريب أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ فيختلف باعتبار

---

١ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٢.

٢ ـ انظر الخطابة ص ٤٤.

حال الموعظة، ويختلف باعتبار حال الواعظ، ويختلف باعتبار حال المخاطبين؛ فالموعظة المفاجئة لها حال، والموعظة المحددة بزمان ومكان محددين لها حال، والموعظة المحددة بعنوان لها حال.

ثم إن الموعظة التي يلقيها فلان من الناس تختلف عن الموعظة التي يلقيها غيره؛ فالعالم وذو المكان له حال، ومن دونه في الرتبة له حال.

وكذلك السامعون؛ فالمقبلون على الموعظة لهم حال، ومن كان إقبالهم أقل فلهم حال أخرى وهكذا...

فمراعاة هذه الأحوال وأمثالها يعين الواعظ على التأثير في الناس، وإساغتهم للموعظة.

وبناءًا على ذلك فإنه قد لا يتسنى تحديد وقت ملائم للموعظة لا تزيد عنه أو تتعداه؛ فقد تقتضي الحكمة أن يطنب الواعظ، وقد تقتضي أن يوجز، وقد تقتضي أن يتوسط.

وإذا روعي هذا الجانب، ووضع في موضعه عم نفعه، وعظم وقعه، والعكس.

قال أبو هلال العسكري ﷺ: «والقول القصد أن الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في جميع الكلام، وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع؛ فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه؛ فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ».[1]

ومهما يك من شيء فإن التوسط والإيجاز هما أقرب الأساليب لإساغة

---

١ ـ كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٢٣٩ ـ ٢٥٩.

الموعظة إلا إذا اقتضى المقام غير ذلك.

وهكذا كانت خطب النبي ﷺ فما كان يطيل ؛ لأنه يخشى على الناس الملل.

وكانت خطبه مع قصرها مليئة بالحكمة، والموعظة الحسنة ؛ إذ تجيء حافلة بجوامع الكلم، والجملِ التي تجري على الألسنة مجرى الأمثال.[١]

جاء في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة ﷺ قال: «كنت أصلى مع رسول الله ﷺ فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً».[٢]

ومعنى «قصداً» : أي متوسط بين الإفراط والتفريط وبين التقصير والتطويل.[٣]

وفي صحيح مسلم عن أبي وائل قال: «خطبنا عمارٌ فأوجز، وأبلغ، فلما نزل قلنا: يا أبا اليقظان! لقد أبلغتَ، وأوجزتَ، فلو كنتَ تَنَفَّسْتَ!.

فقال: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته مئنةٌ من فقهه؛ فأطيلوا الصلاة، وأقصروا الخطبة، وإن من البيان سحراً».[٤]

ومعنى قوله: «لو كنت تنفست» : أي أطلت قليلاً.

ومعنى: «مئنة فقه» : أي علامة.[٥]

ومع أن هذا هو دأب رسول الله ﷺ في خطبه ومواعظه -فهو يطيل في بعض الأحيان متى اقتضى الحال الإطالة.

جاء في صحيح مسلم عن عمرو بن أخطب ﷺ قال: «صلى بنا رسول الله

---

١ ـ انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص١٨٥.

٢ ـ مسلم (٨٦٦).

٣ ـ انظر مرقاة المفاتيح لملا علي قاري ٣ / ٤٩٨.

٤ ـ مسلم (٨٦٩).

٥ ـ شرح النووي على صحيح مسلم ص ٥٦٨.

ﷺ الفجر، وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فَأَعْلَمُنا أَحْفَظُنا».[١]

ومن خلال ما مضى يتبين لنا أن مدة إلقاء الموعظة أمرٌ نسبي يُرجع فيه إلى اجتهاد الواعظ، وحكمته، ويرجع فيه إلى اختلاف الأحوال والأشخاص.

كما تبين لنا أن الإيجاز هو القريب المحبب إلى النفوس.

ومما يمكن التفصيل فيه في هذا الشأن -أيضاً- أن يقال: إذا كانت الموعظة محددة ومعلنة فلا بأس في إطالتها إذا كان الوقت المحدد يسمح بهذا.

وذلك كما لوكان موعدها يستغرق ما بين المغرب والعشاء، أو كان وقتها محدداً بساعة أو أكثر.

وكذلك تسوغ الإطالة إذا كان الواعظ معروفاً عند الناس وهم يرغبون في إطالته كالعالم الذي له منزلته أو نحو ذلك.

وكذلك تسوغ الإطالة إذا طلب المخاطبون من الواعظ أن يطيل فيهم.

أما إذا كانت الموعظة مفاجئة، أو كان الواعظ لا يعرفه المخاطبون، أو كانوا في مكان أو وقت ضيق فلا تسوغ الإطالة.

وذلك مثل الموعظة التي تكون دبر الصلوات المكتوبة؛ فالإطالة فيها تفضي إلى الإملال، واستثقال الحديث؛ فاللائق أن تصاغ بصورة موجزة جداً، فلا يحسن بالواعظ أن يُحرج الناس، ويضجرهم، ويثقل عليهم بطول حديثه.

بل يحسن به أن يحدد زمناً قصيراً حتى يحفز المخاطبين إلى البقاء لسماع الموعظة، وذلك كأن يقول: لن أزيد في كلمتي هذه على خمس دقائق أو أربع أو نحوها، وأن يفي بما يقول.

---

١ ـ مسلم (٢٨٩٢).

ولأن يقال: ليته واصل خير من أن يقال: ليته سكت.

ويجمل بالواعظ أن يقتصر في موعظته على الكلمات الجامعات للمعاني الكثيرة، وأن يتجنب التفصيلات التي لاداعي لها.

كما يحسن به ألا يتشعب في الموعظة، بل يحسن أن يكون الموضوع واحداً؛ حتى تحصل الفائدةُ المرجوَّةُ منه.

فلو انطلق في موعظته من آية، أو حديث، أو أثر، ثم بيَّن المقصود من ذلك بأوجز عبارة لكان حسناً.

مثال ذلك أن يأخذ قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات:٥٦ ويتحدث من خلال هذه الآية عن الحكمة من خلق الجن والإنس، وعن فضل عبادة الله، وأثرها في سعادة الإنسان في دنياه وأخراه، وعن عاقبة الإعراض عن عبادة الله، وأثره في الشقاوة دنيا وأخرى وهكذا...

أو أن يأخذ قوله -تعالى-: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الأعراف:١٩٩ ثم يبين كيف جمعت هذه الآيةُ مكارمَ الأخلاق وهكذا...

أو أن يأخذ سورة العصر، ويبين من خلالها أصول السعادة، وأنها تَكْمُن في العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه.

أو أن يأتي بالحديث الذي رواه معاذ وأبو ذر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أنه قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق

الناس بخلق حسن».[1]

ثم يبين كيف جمع هذا الحديث بين حقين عظيمين من أتى بهما أفلح وسعد، والعكس.

وهذان الحقان هما حق الله، وحق الناس؛ فحق الله في الجملتين الأوليين، وحق الناس في الجملة الأخيرة، وهكذا...

وكذلك الحال بالنسبة للموعظة بعد صلاة الجمعة؛ فالذي ينبغي ألا تكون إلا إذا رأى الواعظ أن الحاجة ماسة لذلك؛ فينبه إلى ما يريد التنبيه عليه، ويبين ما يريد بيانه من الأمور التي لابد أن يفقهها الناس في ذلك الوقت، وأن يكون ذلك في وقت وجيز جداً؛ لأن الناس قد استمعوا لخطبة الجمعة، وربما تكون الخطبة طويلةً، كما أن بعضهم قد يكون أتى إلى المسجد مبكراً، فيثقل عليه سماع الموعظة، ويستحيي من الخروج، فيقع في حرج.

ثم إن الناس يرغبون في الانتشار بعد الصلاة، وابتغاء ما عند الله -عز وجل-.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا كانوا يقرأون الكتاب يوم الجمعة على الناس بعد الصلاة أعجب إليَّ أن يسْمَعَ إذا كان فتحاً من فتوح المسلمين، أو كان فيه شيء من أمور المسلمين فليستمع، وإن كان شيئاً إنما فيه ذِكرُهم فلا يستمع».[2]

١٢ - التخول بالموعظة: فذلك أدعى للاشتياق، وأحرى لقبول الموعظة والانتفاع بها؛ فجدير بالواعظ ألا يكثر من وعظ أناس بأعيانهم، أو يتابع عليهم الوعظ مراراً قريباً بعضها من بعض؛ فإن النفس شرود، وإن كثرة الوعظ تفقده أثره.

---

١ - رواه أحمد ٥ / ١٣٥، والترمذي (١٩٨٧) وحسنه، والحاكم ١ / ٥٤، وقال: «صحيح على شرط الشيخين».

٢ - المغني لابن قدامة ٣ / ٢٥١.

ولقد كان من حكمة نبينا محمد ﷺ في الدعوة أنه لا يجعل الوعظ ركاماً، بل كان يتحرى بالموعظة وقت حاجة الناس إليها، أو وقت نشاطهم لسماعها.

أورد البخاري رحمه الله في كتاب العلم من صحيحه بابين في هذ الشأن.

أحدهما: «باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم؛ كي لا ينفروا».

وتحت هذا الباب ساق بسنده حديثين، أحدهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام؛ كراهة السآمة علينا».[1]

والثاني عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يسروا ،ولا تعسروا، وبشروا، ولا تنفروا».[2]

والباب الثاني: «باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة».

ثم قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، قال: حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل قال: كان عبدالله -يعني ابن مسعود- يذكِّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن! لوددْتُ لو ذكرتنا كل يوم.

قال: أمَا إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكم، وإني أتخولكم بالموعظة، كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها؛ مخافة السآمة علينا».[3]

قال ابن حجر رحمه الله: في شرح الحديث الأول: «في قوله «كان يتخولنا»: «والمعنى كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم؛ لئلا نمل».[4]

وقال: «وقوله: «علينا»: أي السآمة الطارئة، أو ضمِّن معنى المشقة،

---

١ ـ البخاري (٦٨)، وأخرجه مسلم (٢٨٢١).

٢ ـ البخاري (٦٩)، وأخرجه مسلم (١٧٣٤).

٣ ـ البخاري (٧٠)، وأخرجه مسلم (٢٨٢١).

٤ ـ فتح الباري ١ / ١٩٦.

فعداها بعلى، والصلة محذوفة، والتقدير في الموعظة».[١]

وقال ابن حجر مبيناً الضوابط في ذلك: «ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والضابط: الحاجة مع مراعاة وجود النشاط».[٢]

وجاء في صحيح البخاري عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «حدِّث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرار، ولا تُملَّ الناسَ هذا القرآن» الحديث.[٣]

والعرب تقول في أمثالها: «زرْ غِبّاً تزددْ حباً».[٤]

وقال بعضهم:

إذا شئت أن تُقْلى فَزِرْ متتابعاً ... وإن شئت أن تزداد حُبّاً فزر غِبا[٥]

وسيأتي مزيد بيان لهذه الفقرة في الفقرة التالية.

١٣- ترك الوعظ عند من لا يرغب: فمما يحسن بالواعظ أن يحفظ على نفسه كرامتها، وألا يبذل علمه، وينشره عند من لا يقدره، أو لا يرغب فيه.

ومن الحكمة في ذلك ألا يلقي إلا في مكان مناسب، وفي وقت يحسن الإلقاء فيه.

أما إذا كان المكان والزمان غير مناسبين، أو كان الناس عنه منصرفين، ولحديثه غير راغبين -فلا يحسن به أن يلقي.

مثال ذلك أن يكون الناس في وليمة زواج، وهم يتحدثون، ويسلم بعضهم على بعض.

---

١ - ٢- فتح الباري ١/ ١٩٦.

٣ - البخاري (٦٣٣٧).

٤ - مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٢٣، وفرائد الخرائد في الأمثال لأبي يعقوب يوسف بن طاهر الخويي ص ٢٦٢.

٥ - فرائد الخرائد ص ٢٦٢.

أما إذا كان المكان مهيأ والناس مستعدين لسماع الموعظة فلا بأس بإلقائها وإن كان بعضهم مشتغلاً عنه.

جاء في صحيح البخاري عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «ولا ألفينك تأتي القوم، وهم في حديث من حديثهم، فتقصُّ عليهم، فتقطعُ عليهم حديثهم، فتملُّهم، ولكن أنصت فإن أمروك فحدثهم وهم يشتهونه».[1]

قال ابن حجر رحمه الله في شرح كلام ابن عباس -رضي الله عنهما-: «وفيه كراهة التحديث عند من لا يُقبل عليه، والنهي عن قطع حديث غيره، وأنه لا ينبغي نشر العلم عند من لا يحرص عليه، ويحدث من يشتهي بسماعه؛ لأنه أجدر أن ينتفع به».[2]

وعقد الخطيب البغدادي رحمه الله في كتابه الجامع باباً عنوانه: «باب كراهة التحديث لمن لا يبتغيه وأنَّ من ضَيَاعه بذلَه لغير أهله».

ثم ساق جملة من الآثار في هذا.

ومن ذلك ما رواه بسنده عن مسروق رحمه الله قال: «لا تنشر بزَّك إلا عند من يبتغيه».

قال الإمام أحمد رحمه الله: «يعني الحديث».[3]

وساق بسنده عن مطرف رحمه الله أنه قال: «لا تطعم طعامك من لا يشتهيه».

أي لا تحدث بالحديث من لا يريده.[4]

وروي عن مغيرة رحمه الله قال: «إني لأحتسب في منعي الحديث كما تحتسبون

---

١ - البخاري (٦٣٣٧).

٢ - فتح الباري ١١ / ١٤٣.

٣ - الجامع (٧٢٧).

٤ - الجامع (٧٣١).

في بذله ».[1]

وهكذا يتبين لنا من خلال هذه الآثار أنَّ الداعي لابد له من آذانٍ مُصْغيةٍ تعي ما يقول، وإلا كان كلامه هباءً منثوراً.

ثم إن قَدْر العلم والموعظة قد يخف عند الناس إذا رأوا صاحبه في موقف لا يحسد عليه، من إعراض الناس عنه، أو وقيعتهم فيه.

بل لقد بالغ بعضهم فقال:

يستوجب الصفع في الدنيا ثمانية ... لا لوم في واحد منهم إذا صُفِعا

ثم ذكر منهم:

ومُتْحِفٌ بحديثٍ غيرَ سامِعِهِ ... وداخلٌ في حديث اثنين مندفعا [2]

ولا يدخل في ذلك من رأى أناساً على منكر ثمَّ أراد الإنكار عليهم بموعظة يقولها لهم؛ فلا حرج على هذا إذا أراد تغيير المنكر خصوصاً إذا كان في حدود الحكمة، ولا لوم عليه إذا كرهوا موعظته وإنكاره.

فهذا المقام خلاف المقام السابق؛ إذ هو مقام إنكار، وذاك مقام موعظة عامة.

١٤- التجوُّز في الموعظة عند ملاحظة الملل والفتور: فمن الأدب في الموعظة، ومما يليق بالواعظ أن يتجوَّز في موعظته، أو أن يقطع حديثه إذا لاحظ أن الملل والفتور قد دبَّا إلى السامعين.

وعلامة ذلك أن يرى منهم أو من بعضهم تحفُّزاً، أو تمطِّياً، أو تثاؤباً، أو التفاتاً، أو نحو ذلك مما لا يخفى على الواعظ الألمعي.

أورد الخطيب في كتابه الجامع مسألة عنوانها «كراهة التحديث لمن عارضه

---

١ - الجامع (٧٣٦).

٢ -إصلاح المجتمع للبيحاني ص ٣٦٠.

الكسل والفتور».

ثم قال ﷺ : «حق الفائدة أن تساق إلى مبتغيها، ولا تعرض إلا على الراغب فيها؛ فإذا رأى المحدِّثُ بعض الفتور من المستمع فليسكت؛ فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم السامع».[١]

وذكر البغوي ﷺ عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «حدث القوم ما حدَّجوك[٢] بأبصارهم، وأقبلت عليك قلوبهم؛ فإذا انصرفت عنك قلوبهم، فلا تحدثهم».

قيل وما علامة ذلك؟

قال: «إذا التفت بعضهم إلى بعض، ورأيتهم يتثاءبون فلا تحدثهم».[٣]

وذكره الخطيب عن ابن مسعود بلفظ: «حدث القوم ما أقبلت عليك قلوبهم؛ فإذا انصرفت قلوبهم؛ فلا تحدثهم».

قيل له: وما علامة ذلك؟

قال: «إذا حدَّقوك بأبصارهم؛ فإذا تثاءبوا، واتَّكأ بعضهم على بعض فقد انصرفت قلوبهم فلا تحدثهم».[٤]

وأخرج الدارمي في سننه عن ابن مسعود ﷺ قوله: «إن للقلوب لنشاطاً وإقبالاً، وإن لها لتوليةً وإدباراً؛ فحدثوا الناس ما أقبلوا عليكم».[٥]

وأخرج الخطيب عن أبي خلدة قال: سمعت أبا العالية ﷺ يقول: «حدِّث الناس ما حملوا.

---

١ ـ الجامع ص ٣٣٠.

٢ ـ حدجوك: أي وجهوها نحوك.

٣ ـ شرح السنة للبغوي ١ / ٣١٤.

٤ ـ الجامع (٧٤٠).

٥ ـ سنن الدارمي (٤٥٤)، وأخرجه الخطيب في الجامع (٧٤٢).

قال: قلت ما حملوا؟ قال: «ما نشطوا».[1]

١٥ ـ مراعاة حال الجو: فقد يكون شديد الحرارة، أو شديد البرودة.

فإذا اجتمع هذا إلى ثقل الموعظة وطولها قل الانتفاع.

فهذا يحمل الواعظ على أن يقتصد في كلامه خصوصاً إذا كان الناس على غير موعدٍ معه، أو كانوا قد أدوا الصلاة، ويرغبون في الخروج من المسجد.

١٦ ـ معرفة النفوس، ومراعاة العقول: فذلك دليل على حسن التصرف، وسبب في القوة والتأثير؛ فالخبرة بما للطوائف والبيئات من أحوال نفسية، وإلقاء الدعوة بالثوب الملائم لهذه الأحوال موكولٌ إلى ذكاء الواعظ.

والواعظ الحكيم يُحْكِمُ هذا الأمر، وينتفع به عند لقائه بالطبقات المختلفة؛ فتراه يزن عقول مَنْ يلاقونه، ويُحِسُّ بما تُكِنُّ صدورهم، وتنزع إليه نفوسهم، فيشهد مجالسهم، وهو على بصيرة مما وراء ألسنتهم من عقول وسرائر، وعواطف، فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق.

ولاريب أن مراعاة عقول الناس وطباعهم ونزعاتهم فيما لايقعد حقاً أو يقيم باطلاً ـ مظهر من مظاهرِ الإنسانية المهذبة، وخلق من الأخلاق التي تمم الإسلام صالحها، ومكارمها.

وهذا الأمر ـ وإن كان عائداً إلى الموهبة ـ فهو كذلك يقوى وينمو على قدر ما يتقلب فيه الفكر من مشاهدات، وتجارب، ومطالعات تاريخية.

وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى.

١٧ـ تحسس الأدواء، والبداءة بالأهم فالمهم: فالواعظ الحكيم يتحسس

---

١ ـ الجامع (٧٤٣).

أدواء الناس، وينظر أحوالهم، ثم ينزل موعظته على ما يلائم تلك الأحوال من مراعاة الأهم فالمهم.

وهكذا كانت سيرة الأنبياء مع أقوامهم؛ فهم -عليهم السلام- ينظرون في أحوال أقوامهم، فيأمرونهم بالمعروف الذي أخَلُّوا به، أو يحذرونهم من المنكر الذي وقعوا فيه.

فذلك من حكمة الدعوة، ومما يحسن بالواعظ ألا يُغْفِله؛ إذ لا يليق به أن يحدِّث الناس إلا بما يحتاجون إليه، كما لا يحسن به أن يحدثهم عن أمرٍ وهُمْ محتاجون إلى غيره أشد من حاجتهم إليه، وذلك كحال من يحدثهم عن أدب من الآداب، أو سنة من السنن وهم غارقون في الشرك إلى الأذقان.

فهؤلاء محتاجون إلى بيان التوحيد، وخطر الشرك أشد من حاجتهم إلى غيره، وهكذا...

ولا يعني ذلك ألا يتكلم إلا بالتوحيد وفصوله وأبوابه، أو عن الشرك، ووسائله وذرائعه ونحو ذلك.

وإنما المقصود بيان الأهم فالمهم وذلك يختلف من مكان إلى مكان، ومن أناس إلى أناس.

ولهذا كان جميع الأنبياء -عليهم السلام- يقولون لأقوامهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ الأعراف: ٥٩.

كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ النحل: ٣٦.

ومع ذلك لم يغفلوا ما وقعت به تلك الأمم من المخالفات الأخرى؛ فهذا لوط -عليه السلام- يقول لقومه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ

مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الأعراف: ٨٠.

وهذا شعيب -عليه السلام- يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ﴾ الأعراف: ٨٥.

وهكذا كانت سيرة نبينا محمد -عليه الصلاة والسلام- حيث كان يراعي أحوال الناس، وينزل مواعظه على أحوالهم، كما كان يقدم الأهم فالمهم.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ولعل من أجلاها، وأوضحها ما جاء في حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وفي رواية إلى أن يوحدوا الله؛ فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة؛ فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم؛ فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».[1]

ومن المراعاة لهذا الأدب أن تُلاحظَ المناسباتُ والأوقاتُ التي يناسب فيها الحديث عن أمر من الأمور؛ كالحديث عن رمضان في أيامه، وكالحديث عن الحج في وقته، وهكذا؛ لأن النفوس تنسى إذا طال عليها الأمد؛ فإذا ذكرت تذكرت.

١٨- الرفق في القول، واجتناب الكلمة الجافية: فإن الخطاب اللّين قد يتألّف النفوسَ الناشزةَ، ويدنيها من الرشد، ويرغبها في الإصغاء للحجة أو الموعظة.

---

١ - رواه البخاري (١٤٥٨ و ٤٩٦ و ٧٣٣١)، ومسلم (١٩).

قال -تعالى- في خطاب هارون وموسى -عليهما السلام-: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ ﴾ طه.

ولقن موسى - عليه السلام - من القول اللين أحسنَ ما يخاطب به جبار يقول لقومه: أنا ربكم الأعلى، فقال-تعالى-: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝ ﴾ النازعات.

قال ابن القيم ﷺ: «وتأمل امتثال موسى لما أُمِر به كيف قال لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝ ﴾ النازعات.

فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض، لا مَخْرجَ الأمر، وقال: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ولم يقل: «إلى أن أزكيك».

فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكِّي دون غيره؛ لما فيه من البركة، والخير، والنماء.

ثم قال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك.

وقال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ استدعاءًا لإيمانه بربه الذي خلقه، ورزقه، ورباه بنعمه صغيراً وكبيراً».[1]

ولهذا فإن الموعظة التي تُلقى في أدب، وسعة صدر، تسيغها القلوب، وتهش لها النفوس، وترتاح لها الأسماع.

ولقد امتن ربنا -جل وعلا- على نبينا محمد ﷺ بأن جبله على الرفق ومحبة الرفق، وأن جنبه الغلظة، والفظاظة، فقال -عز وجل-: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩.

---

١ - بدائع الفوائد لابن القيم ٣/ ١٣٢ - ١٣٣.

ولقد كانت سيرته -عليه الصلاة والسلام- حافلةً بهذا الخلق الكريم الذي مَنْ مَلَكَه بسط سلطانه على القلوب.

وكما كان -عليه الصلاة والسلام- متمثلاً هذا الخلق فقد كان يأمر به ويبين فضله.

قال ﷺ «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على غيره».[١]

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».[٢]

ولما بعث أبا موسى الأشعري ومعاذاً إلى اليمن قال لهما: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا».[٣]

قال الإمام أحمد رحمه الله: «يأمر بالرفق والخضوع، فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب؛ فيكون يريد ينتصر لنفسه».[٤]

ولقد أحسن من قال:

لوسار ألفُ مُدَجَّجٍ في حاجة لم يَقْضِها إلا الذي يترفق[٥]

وكان يقال: «من لانت كلمته وجبت محبته».[٦]

فالرفق ولين الخطاب هو المتعين حال الموعظة، وهو الأليق بحال الواعظ؛

---

١ - رواه مسلم (٢٥٩٣).

٢ - رواه مسلم (٢٥٩٤).

٣ - رواه البخاري (٦١٢٤)، ومسلم (١٧٣٣).

٤ - جامع العلوم والحكم ٢ / ٤٥٦.

٥ - روضة العقلاء ص ٢١٦.

٦ - البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ١٧٤.

لأن حالَ الموعظةِ غيرُ حالِ الرد، والمناظرة، والمجادلة.

ومع ذلك قد يحتاج إلى الشدة وذلك في حالات خاصة، ومن أناس مخصوصين، وفي حق من يستحق ذلك؛ فإذا كان الواعظ ذا مكانة، وكان المقام يقتضي الشدة، ولم يترتب على ذلك مفسدة -أخذ بهذا الأسلوب.

ولهذا كان موسى -عليه السلام- متلطفاً مع فرعون غاية التلطف في بداية الأمر -كما مر قريباً- وعندما رأى من فرعون العناد والاستكبار ومحاولة الصد عن الهدى من بعد ما تبين له -أغلظ له في الخطاب كما في قوله -تعالى-:

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ الإسراء: ١٠٢.

فأين هذا الخطاب من الخطاب الأول؟.

وكما في قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ العنكبوت: ٤٦.

وكما قال إبراهيم -عليه السلام- لقومه: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأنبياء: ٦٧.

وكان النبي ﷺ يأخذ بهذا الأسلوب عند الحاجة إليه.

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين في قصة المرأة المخزومية التي سرقت، فعن عائشة -رضي الله عنها- أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت؛ فقالوا: ومن يكلم رسول الله ﷺ، ومن يتجرأ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ.

فكلم رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟».

ثم قام فخطب، قال: «ياأيها الناس! إنما أضل من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة

بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها». [١]

وفي الصحيحين -أيضاً- عن أبي هريرة ﷺ قال: «ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، لقد هممت أن آمر المؤذن فيقيم، ثم آمر رجلاً يؤم الناس، ثم آخذ شعلاً من نار فأحرق على من لا يخرج إلى الصلاة بعد». [٢]

ولقد بوب البخاري في كتاب الأدب من صحيحه باباً سماه: «باب: ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله».

ثم ساق تحته خمسة-أحاديث. [٣]

وخلاصة القول أنَّ الرفق هو الأصل، وهو الأليق بحال الواعظ ما لم تدع الحاجة إلى الشدة، وأنَّ الشدَّة قد لا تلائم كل أحد، خصوصاً ممن ليس له قَدْرُ سنٍّ، أو علم، أو منزلة، أو قبول عند الناس.

١٩- **نزاهة اللسان**: ومما يدخل في ذلك تجنب الفحش، والبذاءة.

عن ابن مسعود ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش البذيء». [٤]

قال النووي ﷺ: «ومما ينهى عنه الفحش، وبذاءةُ اللسان، والأحاديث الصحيحة فيه كثيرة ومعروفة.

ومعناه: التعبير عن الأمور المستقبحة بعبارة صريحة، وإن كانت صحيحة،

---

١ - البخاري (٦٧٨٨)، ومسلم (٢٦٤٨).

٢ - البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١).

٣ - من (٦١٠٩) إلى (٦١١٣).

٤ - أخرجه أحمد ٤٠٤، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٢)، والترمذي (١٩٧٧) وقال: «حسن غريب» وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٣٧).

والمتكلم بها صادقاً.

وينبغي أن يُستعمل في ذلك الكناياتُ، ويعبرَ عنها بعبارة جميلة يفهم بها الغرض.

وبهذا جاء القرآن العزيز، والسنن الصحيحة المكرمة.

قال -تعالى-: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ البقرة: ١٨٧.

وقال -تعالى-: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ النساء: ٢١.

وقال -تعالى-: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ البقرة: ٢٣٧.

والآيات، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة.

قال العلماء: فينبغي أن يُستعمل في هذا وما أشبهه من العبارات التي يُستحيا من ذكرها بصريح -اسمها- الكناياتُ المُفْهِمةُ؛ فيكنِّيَ عن جماع المرأة بالإفضاء، والدخول، والمعاشرة، والوقاع، ونحوها»[1].

وقال النووي رحمه الله: «وكذلك يكنِّي عن البول والتغوط بقضاء الحاجة، والذهاب إلى الخلاء، ولا يصرح بالخراءة، والبول، ونحوهما.

وكذلك ذكر العيوب، كالبرص، والبَخَر، والصنان، وغيرها يُعبَّر عنها بعبارات جميلة يفهم منها الغرض.

ويلحق بما ذكر من الأمثلة سواه»[2].

قال القاسمي رحمه الله: «إياك، وما يستقبح من الكلام؛ فإنه ينفِّر عنك الكرام، ويؤثِّب عليك اللئام» ا-هـ.[3]

---

١ - الأذكار للنووي ص٣٣٤.

٢ - الأذكار ص٢٣٤.

٣ - جوامع الآداب للقاسمي ص ٦.

ومما يَدْخُل في ذلك ما كان مستنكر الظاهر، وإن كان معناه سليماً بعد تدقيق النظر فيه.

قال الماوردي ﷺ: «وما يجري مجرى فحش القول، وهُجرْه، ولزوم تنكبِّه- ما كان شنيع البديهة، ومستنكر الظاهر، وإن كان عقبَ التأمل سليماً، وبعد الكشف، والرَّوية مستقيماً» .[1]

ومما تجدر الإشارة إليه أنه لا ينبغي التصريح بالعبارت المستكرهة صراحة مالم تدع الحاجة -كما مر-.

أما إذا دعت الحاجة إلى ذلك فلا بأس به، بل هو المتعيِّن؛ فإن تحصيل الإفهام في هذا أولى من مراعاة الأدب.[2]

٢٠- صرف الإنكار على غير معين: فذلك مما يندرج في سلك أدب الموعظة، وهكذا كان النبي ﷺ حيث كان يأخذ في التأديب والزجر عما لا ينبغي مأخذاً لطيفاً، حتى إنه لا يوجه الإنكار إلى الرجل الذي صدر منه الخطأ بعينه، ما وجد في الموعظة العامة كفايةً من باب قوله: «ما بال أقوام».

جاء في الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً فرخَّص فيه، فتنزه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب، فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» .[3]

وقد بوب البخاري ﷺ لهذا الحديث في «باب من لم يواجه الناس في

---

١ - أدب الدنيا والدين ص ٢٨٤.

٢ - انظر الأذكار ص٣٣٤ - ٣٣٥.

٣ - البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

العتاب».

وشكى إليه رجلٌ رجلاً حين كان يطيل بهم صلاة الغداة، فاشتد غضبه ﷺ ولكنه احتفظ بعادته الجميلة؛ فلم يخاطب الذي كان يطيل على التعيين، بل عمم الموعظة وقال: «أيها الناس إن منكم منفرين؛ فمن صلى بالناس فليخفف؛ فإن فيهم المريض، وذا الحاجة».[1]

هذا هو الأصل في تعميم الموعظة، وصرف الإنكار إلى غير معين.

أما إذا احتيج إلى أن يكون الإنكار على وجه التعيين فلا بأس في ذلك، وإن كان ذلك لا يسوغ من كل أحد، ولا في حق كل أحد؛ إذ لا يسوغ إلا إذا اقتضت الحكمة ذلك، ولا يسوغ إلا ممن له منزلة، ومكانة، وكلمة مطاعة.

ولهذا خاطب النبي ﷺ معاذاً ﷺ على وجه التعيين.

جاء في الصحيحين عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: «كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيؤم قومه، فصلى ليلة مع النبي ﷺ العشاء، ثم أتى قومه فأمَّهم، فافتتح بسورة البقرة، فانحرف رجل، فسلَّم، ثم صلى وحده، وانصرف، فقالوا له: أنافقت يا فلان؟ قال: لا، والله لآتين رسول الله ﷺ فلأخبرنه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله إنَّا أصحاب نواضح نعمل بالنهار، وإن معاذاً صلى معك العشاء، ثم أتى فافتتح بسورة البقرة، فأقبل رسول الله ﷺ على معاذ فقال: «يامعاذ! أفتان أنت! اقرأ بكذا، واقرأ بكذا».

وفي رواية: «يامعاذ! أفتان أنت ـ ثلاثاً ـ اقرأ: «والشمس وضحاها» و«سبح اسم ربك الأعلى، ونحوهما».

وفي رواية: «فتان، فتان، فتان» ثلاث مرار أو قال: «فاتناً، فاتناً، فاتناً».[2]

---

١ ـ رواه البخاري (٧٠٢) و(٧٠٤) و(٦١١٠)، ومسلم (٤٦٦).

٢ ـ البخاري (٧٠١ و ٥٠٧ و ٧١٠ و٦١٠٦)، ومسلم (٤٦٥).

٢١- أن يوجه الواعظ الإنكار إلى نفسه تصريحا، وهو يعني السامع تلميحاً: كأن يقول: مالنا لانتَّقي الله، ونمتثل أوامره، ونجتنب نواهيه، ونحو ذلك...

ويشير إلى هذا الأدب قوله-تعالى-فيما يقصه عن رجل يدعو قومه إلى الإيمان بالله: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يس:٢٢.

فإنه أراد تقريع المخاطبين؛ إذ أعرضوا عن عبادة خالقهم، وعكفوا على عبادة مالا يغني عنهم شيئاً، فأورد الكلام في صورة الإنكار على نفسه؛ تلطفاً في الخطاب، وإظهاراً للخلوص في النصيحة؛ حيث اختار لهم ما يختار لنفسه.

٢٢ـ مراعاة المشاعر: وقد مضى شيء من ذلك، ومن المراعاة في هذا الشأن-أيضاً- ألا يكثر الواعظُ من صيغة فعل الأمر كأن يكثر في كلامه من قول: افعلوا واتركوا، ونحو ذلك؛ لأن الأمر ثقيل على النفوس خصوصاً إذا كان الواعظ صغيراً، أو ليس معروفاً عند السامعين.

ومن المراعاة للمشاعر ألا يلفظ بالكلمات التي يمجُّها الذوق، وتتأذى منها الأسماع -كما مر- وألا يواجه الناس بما يكرهون، وألا يكثر من لومهم، ونقدهم، وتقريعهم، وتحميلهم ما لا يطيقون.

ومن المراعاة للمشاعر أن يرفع الواعظ من قيمة السامعين، وأن يذكرهم بما عندهم من الخير؛ حتى تنشرح صدورهم لما يلقى عليهم.

ومن المراعاة للمشاعر أن يُمهل الواعظ من فاتتهم الصلاة حتى يفرغوا من صلاتهم؛ حتى يتمكنوا من سماع الموعظة، ولئلا تختلط عليهم الصلاة، وذلك إذا كانت الموعظة تلقى بعد الصلاة المكتوبة.

ومما يستحسن في هذا أن يستأذن الواعظ الإمام بأن يخبر المأمومين بأن موعظة ستلقى بعد قليل؛ حتى يمكث الذين أدوا الصلاة، ريثما ينتهي الذين

يُلْحقون.

وإذا رأى الواعظ أن يبدأ موعظته فليخفض صوته قدر المستطاع حتى لا يشوش على المصلين.

ومن مراعاة المشاعر تنزيل الناس منازلهم، فكل يعطى منزلته اللائقة به من الإجلال، والإكرام، والتوقير؛ فذلك أدعى لقبول الحق، والإذعان إليه.

أخرج مسلم في مقدمة صحيحه عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم».[1]

ولقد اعتنت كتب السنة بهذا المعنى، كما اعتنت بذلك كتب أدب الطلب كثيراً.

ولو ألقى القارئ نظرة في بعضها لرأى ذلك جلياً.

ومن ذلك على سبيل المثال: كتاب الجامع لأخلاق الراوي، وآداب السامع للخطيب البغدادي.

ومما عقده من أبواب في ذلك الكتاب -الباب التاسع عشر، وعنوانه: «باب: توقير المحدث طلبة العلم، وأخذه نفسه بحسن الاحتمال لهم والحلم».

وساق جملة من الآثار تحت هذا الباب، ومن العنوانات التي جاءت تحت هذا الباب ما يلي:

- «إكرامه المشايخ وأهل المعرفة».
- «تعظيم المحدِّث الأشراف ذوي الأنساب».
- «تعظيم من كان رأساً في طائفته وكبيراً عند أهل نِحْلته».
- «إكرامه الغرباء من الطلبة وتقريبهم».

---

١ - مقدمة صحيح مسلم ص ٢٠.

- « استقباله لهم بالترحيب ».
- « تواضعه لهم ».
- « تحسين خلقه معهم ».
- « الرفق بمن جفا طبعه منهم »

وتحت كل عنوان ساق ﷺ جملة من الآثار.[١]

ومن المراعاة للمشاعر أن لا يكثر من ذكر اسم شخص ينفر منه السامعون ولو كان كلامه حقاً، ويكفي في ذلك أن يُورَد كلامه دون ذكر لشخصه.

وهذا ما يصنعه بعض العلماء كصنيع ابن أبي العز الحنفي ﷺ في كتابه (شرح العقيدة الطحاوية) حيث أورد كثيراً من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم ـرحمهما الله ـ دون ذكر لاسميهما؛ لأن هدفه نشر الحق، ولو أنه ذكرهما بأعيانهما لربما حصل نفرة من كتابه خصوصاً في ذلك الوقت.

ومن المراعاة للمشاعر ـأيضاً ـ أن يورد الكلام بعزوه إلى قائله إذا كان ممن له قبول عند السامعين.

ومن ذلك ألا يذم شخصاً بعينه إذا كان في ذمه باسمه استثارة للسامعين ـوإن كان ذلك المذموم يستحق الذم ـ ويكفي في ذلك أن يبين الحق فيما يراد بيانه، ويبين الباطل في ذلك دون ذكر للأشخاص ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

٢٣- التثبت مما يقال، والنظر في جدوى نشره: فالواعظ اللبيب لا يتكلم في شيء إلا إذا تثبَّت من صحته؛ فإذا ثبت لديه ذلك نَظَرَ في جدوى نشره؛ فإن كان في نشره حفز للخير، واجتماعٌ عليه ـنشره، وأظهره، وإن كان خلاف ذلك أعرض عنه، وطواه.

---

١ ـ انظر الجامع ص ٣٤٣ ـ ٣٥٥.

ولقد جاء النهي الصريح عن أن يحدث المرء بكل ما سمع.

قال ﷺ : « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع ».[١]

ويتعين هذا الأدب في وقت الفتن والملمات، فيجب على الواعظ أن يتحرى هذا الأدب ؛ حتى يقرب من السلامة، وينأى عن العطب.

قال الله -تعالى- : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ النساء: ٨٣.

قال الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: « هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة مما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم -أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم: أهل الرأي، والعلم، والنصح، والعقل، والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإذا رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرزاً من أعدائهم -فعلوا ذلك، وإن رأوا ما ليس فيه مصلحة، أو فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه.

ولهذا قال: ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ .

أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يُتقدم بين أيديهم ؛

---

١ - رواه مسلم (٥).

فإنه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمرُ بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا فيحجم عنه؟ ».[١]

وقال ﷺ في موضع آخر حاثاً على التثبت، والتدبر، والتأمل قال: «وفي قوله -تعالى-: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ طه: ١١٤ أدبُ طالب العلم، وأنه ينبغي له أن يتأنى في تدبره للعلم، ولا يستعجل بالحكم على الأشياء، ولا يعجب بنفسه، ويسأل ربه العلم النافع والتسهيل».[٢]

وقال ﷺ : «قوله -تعالى-: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ النور:١٢ هذا إرشاد منه لعباده إذا سمعوا الأقوال القادحة في إخوانهم المؤمنين رجعوا إلى ما علموا من إيمانهم، وإلى ظاهر أحوالهم، ولم يلتفتوا إلى أقوال القادحين، بل رجعوا إلى الأصل ، وأنكروا ما ينافيه».[٣]

قال ابن حبان ﷺ : «أنشدني منصور بن محمد الكريزي:

الرفقُ أيمنُ شيءٍ أنت تَتْبَعُه ... والخُرق أشأمُ شيء يُقْدِم الرَّجُلا
وذو التثبت من حمد إلى ظَفَرٍ ... من يركبِ الرفقَ لا يستحقبِ الزللا [٤]

---

١ - تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن للسعدي ص١٥٤.

٢ - فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن للشيخ عبدالرحمن السعدي عناية الشيخ د. عبدالرزاق العباد ص١٦١.

٣ - فتح الرحيم الملك العلام ص١٦٢.

٤ ـ روضة العقلاء ص ٢١٦.

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذه الفقرة في الفقرة الآتية.

٢٤- ألا يحرص على إبداء رأيه في كل أمر، وألا يقول كل ما يعلم: فاللائق بالواعظ أن ينظر في العواقب، وأن يراعي المصالح؛ فلا يحسن به أن يبدي رأيه في كل صغيرة وكبيرة، ولا يلزمه أن يتكلم بكل نازلة؛ لأنه ربما لم يتصور الأمر كما ينبغي، وربما أخطأ التقدير، وجانب الصواب، والعرب تقول في أمثالها: «الخطأ زاد العَجُول».[1]

بخلاف ما إذا تريث وتأنى؛ فإن ذلك أدعى لصفاء القريحة، وأحرى لأنْ يختمر الرأي في الذهن، وأخلقُ بالسلامة من الخطأ.

والعرب تمدح من يتريَّث، ويتأنى، ويقلِّب الأمور ظهراً لبطن، وتقول فيه: «إنه لحُوَّلٌ قُلَّب».[2]

بل ليس من الحكمة أن يبدي الإنسان رأيه في كل ما يعلم حتى ولو كان متأنياً في حكمه، مصيباً في رأيه؛ فما كل رأي يُجهر به، ولا كل ما يعلم يقال.

بل الحكمة تقتضي أن يحتفظ الإنسان بآرائه إلا إذا استدعى المقام ذلك، واقتضته الحكمة والمصلحة.

وزِن الكلام إذا نطقت فإنما يبدي العقولَ أو العيوبَ المنطقُ

قال أحد الحكماء: «إن لابتداء الكلام فتنةً تروق وجدَّةً تعجب؛ فإذا سكنت القريحة، وعدل التأمل، وصفت النفس- فليعدِ النظر، وليكن فرحُه بإحسانه مساوياً لغمِّه بإساءته».[3]

وقال ابن حبان رحمه الله: «الرافق لا يكاد يُسبَق كما أن العَجِل لا يكاد

---

١ ـ مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤٣١.

٢ ـ الأمثال لأبي عبيد ص١٠٠.

٣ ـ زهر الآدب للحصري القيرواني ١/ ١٥٤.

يَلْحَق وكما أن من سكت لا يكاد يندم كذلك من نطق لا يكاد يسلم.

والعَجِل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرب، ويذم بعد ما يحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم.

والعَجِل تصحبه الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تُكَنِّي العجلةَ أمَّ الندامات». [١]

وذكر بسنده عن عمر بن حبيب قال: «كان يقال: لا يوجد العجول محموداً، ولا الغضوب مسروراً، ولا الحر حريصاً، ولا الكريم حسوداً، ولا الشَّره غنياً، ولا الملول ذا إخوان». [٢]

ولهذا تتابعت نصائح الحكماء على التريث خصوصاً عند إرادة الإقدام على مواقع الخطر، قال المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مُرَّة ... حازت من العلياء كل مكان [٣]

وقال:

وكل شجاعة في المرء تغني ... ولا مثل الشجاعة في الحكيم [٤]

٢٥- التمهيد والتدرج في العرض: مثال ذلك أن يقصد الواعظ إلى أمر فيه مشقة، فيضع أمامه تمهيداً يخفف وقعه، ويقلل شأنه، حتى لا تكبره النفوس، وترتخي دونه العزائم خوراً.

ومثال هذا ما سلكه التنزيل في التكليف بفريضة الصيام؛ حيث شرعه أولاً

---

١ ـ روضة العقلاء ص٢١٦.

٢ ـ روضة العقلاء ص ٢١٧.

٣ ـ ديوان المتنبي بشرح العكبري ٤ / ١٧٤.

٤ ـ ديوان المتنبي ٤ / ١٢٠.

في أمر مجمل فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ البقرة:١٨٣.

وذكر أن هذا النوع من القربة قد فُرض على الأمم السالفة، فقال -تعالى-: ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة:١٨٣.

فهو عملٌ مألوف، وشريعة غير خاصة، وفي هذه التذكرة ما يُدْخله في قبيل السنن الجارية، ويجعله أمراً هيناً.

ثم أشعرهم بأن أيامه في الحساب قليلة فقال-تعالى-: ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ ﴾ البقرة: ١٨٤.

وبعد أن هيَّأ النفوس لقبول فريضته قال: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ البقرة: ١٨٥.

وجرى التنزيل على هذه السنة عند الترغيب في أمر صعب المركب، شديد الأثر على النفس، وهو الصبر على الأذى، ومقابلة الإساءة بالعفو؛ فأمر بالعدل في المجازاة، ونهى عن تجاوز المثل في العقوبة، فقال: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾ النحل:١٢٦ ثم بين في قوله-تعالى-: ﴿ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ النحل:١٢٦ أن الأكمل لهم الإغضاءُ عن السيئة، وترك المؤاخذة عليها؛ فالصفح عن الأذى -مع القدرة على الانتقام- ضربٌ من الكرم، ومظهرٌ من مظاهر الرحمة، وأخذٌ بالعزيمة الراشدة.

ثم قال -تعالى-: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ النحل:١٢٧ فرغَّب في الصبر بطريق أبلغ؛ إذ وجَّه الخطاب إلى الرسول ﷺ وهو أسرع الناس إلى الاستقامة على الطريقة؛ فيجدون مِنْ سُنَّة التأسي به نشاطاً للطاعة، وباعثاً على التجمل بالصبر، وإن ثقلت على النفوس وطْأته.

ومن هذا القبيل تذكير الناس بعاقبة العمل الصالح وإن كان شاقاً على

النفوس، كما قال -تعالى- في شأن الجهاد: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾.

ثم بين -عز وجل- ثقله على النفوس بقوله: ﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾.

ثم بين أن المكروه قد يكون هو الخيرَ فقال: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٦.

وبيَّن أن الدعة وترك الجهاد محبوب للنفوس، ولكن ذلك المحبوب قد يكون شراً، فقال: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢١٦.

ومن حسن السياسة -أيضاً- ألا يجهر الواعظ -أحياناً- برأيه الصريح في صدر مقاله، خصوصاً إذا كان يريد طَرْحَ أمرٍ لم يألفه الناس.

وإنما يبتدئ بما يخف على المخاطبين سماعه من المعاني الحائمة حول الغرض، ثم يعبر عن المراد بلفظ مجمل، ويدنو من إيضاحه شيئاً فشيئاً؛ حتى لايفصح عنه إلا وقد ألفته نفوسهم، وهدأت له خواطرهم.

وعلى هذه الطريقة جرى ذلك المؤمن من آل فرعون؛ فقد كان يكتم إيمانه، وهو يحب أن يظهره، ويدعو قومه إلى مثله، وكان يخشى -من التصريح بعقيدته- بادرة غضبهم، أو انتقامهم منه، حتى اغتنم وقت إجماعهم على قتل موسى -عليه السلام- فرصة، وقام ينكر عليهم هذه المؤامرة المخزية، وتخلَّص إلى أن دعاهم إلى الإيمان بما بُعِث به هذا الرسولُ دعوةً ظاهرة.

قال -تعالى-: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ غافر: ٢٨.

فقد فاتحهم بالإنكار على قتله وهو لا يدل على أنه مصدق برسالته؛ إذ قد

ينهى العاقل عن سفك دم الرجل أو اضطهاده وهو من أبغض الناس إليه؛ تألماً من مشهد الظلم، أو حذراً مما ينشأ عنه من فتنة.

ودل بقوله: ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ على ما لهذا الرجل من فضل في العقيدة، وأومأ إلى أنه لم يجئ شيئاً نكراً يستحق به هذه العقوبة الصارمة، وذكَّرهم إذ قال: ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ بالدلائل القائمة على صدقه في دعوى الرسالة، وقد أخذ يتقرب بهذه الجملة في دعوتهم إلى الإيمان به، ولم يرد التظاهر بأنه من شيعته، فعزل نفسه عمن جاءهم بهذه البينات، وأضاف مجيئها إليهم خاصة، ثم استرسل في موعظته المنسوجة في أدب الإنصاف إلى أن صدع ببطلان نِحْلتهم، ودعاهم إلى دين الحق بقوله الصريح -كما في قوله تعالى فيما يقصه عنه- : ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝ ﴾ غافر.[1]

ومن التمهيد والتدرج في العرض تنزيل الأمر على أحوال السامعين، كأن يقول: ألا يحب الواحد منا أن يعيش عزيزاً ذا كرامة؟ ألا يحب أن يكون بعيداً عن مواطن الهوان؟ ثم يخلص من ذلك إلى أن الإيمان والعمل الصالح كفيلان بذلك.

أو أن يقول: أيرضى الواحد منا بالدنية، أيرضى بأن يساء إليه؟ أو أن يساء إلى والديه؟ أو إخوانه؟ أو أولاده؟

والجواب -بلا شك- سيكون : لا.

فيقال: وكذلك الناس.

---

١ - انظر رسائل الإصلاح ص٢٩ - ٣٢.

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة في قصة الشاب الذي استأذن النبيَّ ﷺ في الزنا، فتدرج معه النبي ﷺ في خمسة أسئلة حتى اقتنع الفتى بحرمة الزنا، وخرج وقد طابت نفسه.

قال أبو أمامة ﷺ : « إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا؛ فأقبل القوم عليه، فزجروه، قالوا: مه مه، فقال: ادْنه، فدنا قريباً، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم.

قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فرجه؛ فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء ». [1]

٢٦- براعة الأسلوب، ومراعاة مقتضيات الأحوال: فذلك مما يأخذ بالألباب، ويجعل الموعظة تأخذ طريقها إلى القلوب؛ فالعمل على إنقاذ النفوس من أودية الغواية، والإقبال بها إلى مطالع السعادة مسلك وعر، ولا يمر فيه على استقامة تامة إلا من بلغ في صناعة البيان أمداً قصياً.

ولا يكفي في الدعوة أن يكون في يد القائم بها حجة، أو موعظةٌ يلقيها في

---

١ ـ أحمد ٥ / ٢٥٦، ٢٥٧، وقال الألباني في الصحيحة (٣٧٠): «وهذا سنده سند صحيح، رجاله كلهم رجال الصحيح».

أي صورة شاء؛ ذلك أن المخاطبين يختلفون ذوقاً، وثقافةً، واختلافَ زمنٍ وبيئةٍ.

ومن اللائق أن تصاغ دعوةُ كلِّ طائفةٍ في أدب يليق بأذواقها وثقافتها؛ ذلك أن الموعظة ثقيلة على السمع، مُسْتَحْرَجة على النفس؛ لاعتراضها الشهوة، ومضادتها للهوى، حتى قال يونس بن عبيد: «لو أمرنا بالجزع لصبرنا».[1]

يشير إلى ثقل الموعظة على السمع، وجنوح النفس على مخالفتها.

ولكنَّ صَوْغَها بأسلوب رائع يجعلها خفيفةً على السمع، سهلة النفوذ إلى القلب.

وقد تكون معانيْ الموعظةِ حاضرةً في ذهن الشخص، ولا يجد في نفسه تأثراً بها، حتى إذا عُرِضت عليه تلك المعاني في أسلوب بارع وقعت منه موقع الإعجاب، حتى لكأنها معانٍ جديدةٌ لم يسبق له بها علم.[2]

ولا غرو-إذاً-أن ترى الرجلين يلقيان موعظةً في باب واحد، وفي غرض واحد وبينهما في التأثير مابين السماء والأرض، وربما كان ذلك بسبب أسلوب العرض؛ فترى أن نفوس الناس قد أقبلت على أحدهما، وأساغت موعظته إساغة الظمآن للماء القراح، وتراها جَفَتْ وجفلت عن موعظة الآخر؛ فزلَّت عن القلوب كما زلت الصفواء بالمتنزِّل.

ولهذا كان حرياً بالواعظ أن يكون ذا دراية بأحوال الناس، وأن يصوغ موعظته بما تقتضيه تلك الحال؛ فالناس مختلفون مشاربَ وعاداتٍ، وأخلاقاً

---

١ ـ بهجة المجالس لابن عبدالبر ٣/ ٣٦٤، وانظر البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي ٩/ ١٣٨.

٢ ـ انظر الدعوة والإصلاح ص٢٥ـ٢٦، و٦٥.

وسناً، ومهنةً ومرتبةً، ولكل طائفة من الناس أحوال تقتضي نوعاً من الخطاب لا تقتضيه أحوال الجماعة الأخرى؛ فالجماعة الثائرة -مثلاً- تخاطب بعبارة هادئة؛ لتكون برداً وسلاماً على القلوب.

والجماعة الخَنِسة تخاطب بعبارات مثيرة للحمية، موقظة للهمة، حافزة للعزيمة.

والجماعة التي شطت وركبت رأسها تخاطب بعبارة فيها قوة العزم، ونور الحق، وفيها إرعادة المُنذر، ويَقَظةُ المنقذ، وفيها روح الرحمة وحسن الإيثار؛ ليجتمع الترغيب مع الترهيب، ومع سيف النقمة ريحان الرحمة.

ثم إن الشباب يثير حماسهم، ويوقظ قلوبهم، ويدفع إلى إقناعهم خطاب لا يثير عاطفة الشيوخ؛ لأن الملائم لهؤلاء نوعٌ غيرُه.

والأغنياء يلائمهم نوع من الكلام لا يقتضيه مقام الموعظة لمن ليسوا كذلك.

والعلماء يجتذبهم التوقير، وعمق الكلام، ودقته.

وموعظة الرؤساء تقتضي تجملاً بالحياء، والرزانة، والركانة، والهدوء، كما تقتضي ابتعاداً عن التملق المرزي، وعن أي مظهر من مظاهر التعالي، وتقتضي أخذاً بالتلطف، وحسن المدخل، والتلميح بالاعتراض إن كان هناك ما يقتضي ذلك.

وهكذا لكل جماعة نوع من الخطاب؛ فعلى الواعظ أن يجيء إليه من ناحيته؛ فذلك أدعى إلى وصوله إلى مراده.[1]

ثم إن نفراً من الناس غير قليل يستهويهم رونقُ الألفاظ أكثر من حكمة معانيها؛ فلا ينبغي أن نستخف بهؤلاء، وأن ندعهم لِعُصْبة المضلين يعرضون

---

١ - انظر الخطابة ص ٤٣.

عليهم الآراءَ المنحدرةَ في شقاء.

وإذا لم يكن لأولئك المضلين سبيلٌ على المستضعفين سوى أنهم يحبِّرون لهم القول تحبيراً ـ فمن الميسور على دعاة الإصلاح أن يسابقوهم في مضمار البراعة؛ فإنهم متى ألبسوا الدعوة إلى الحق والفضيلة أساليب بديعة أحرزوا الغاية، وأنقذوا أولئك المستضعفين من ضلال بعيد.(١)

ولا يعني ذلك أن يتكلف الواعظ السجع، ويتحرى دقائق الإعراب، ووحشيَّ اللغة.

وإنما المقصود أن يلبس موعظته ثوباً جميلاً يُفهم، ويستحسن، ويقع موقعه في القلوب.

فهاهو ابن الجوزي رحمه الله وهو الإمام المتمرس في الوعظ وأساليبه ـ يقول: «فالتحقيق مع العوام صعب، ولا يكادون ينتفعون بِمُرِّ الحقِّ، إلا أن الواعظ مأمور بأن لا يتعدى الصواب، ولا يتعرض لما يفسدهم، بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه.

وهذ يحتاج إلى صناعة؛ فإن مِنَ العوام مَنْ يعجبه حسن اللفظ، ومنهم من يعجبه الإشارة، ومنهم من ينقاد ببيت شعر.

وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ؛ ليجمع مطالبهم.

ولكنه ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب، وأن يعطيهم من المباح في اللفظ قدر المِلح في الطعام، ثم يجتذبهم إلى العزائم، ويعرفهم الطريق الحق».(٢)

هذا وسيأتي مزيد بسط للأساليب التي يحسن سلوكها في الموعظة في

---

١ ـ انظر الدعوة والإصلاح ص ٥٣ ـ ٥٤.

٢ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

الفقرات التالية.

٢٧- حسن الاستفتاح: فمن أراد أن يجعل لموعظته افتتاحاً حَسُنَ أن يعنى به تمام العناية، وأن يجمله بما يستطيع من وسائل التجميل المناسبة، التي تجتذب الأذهان، وتهيئ الأسماع، وتقود النفوس إلى الإقبال عليه، وإلى أن تتقبله بقبول حسن؛ فإن الفكرة الأولى عن شيء، أو أمر، أو شخص تثبت وتَقِرُّ بالنفس.

ومحوها يحتاج إلى عناء؛ فإن كانت حسنة صَعُب تهجينها، وإن كانت سيئة صعب تزيينها.

والافتتاح -إن وجد- أولُ ما يلقى به الواعظ الجماعة؛ فإن وقع في نفوسهم موقع القبول كانت الموعظة على غراره، واستطاع من خلاله أن يصل قلوبهم.

وإن لم يصادف قبولاً صعبت الحال، واحتاج الأمر إلى خبير بأحوال النفوس، حاذق في طُرُق العلاج، ووسائل الشفاء من ذلك النّفار وهذا الشّماس.[1]

قال أبو هلال العسكري -رحمه الله- : «إذا كان الابتداء حسناً بديعاً ومليحاً ورشيقاً كان داعيةَ الاستماعِ لما يجيء بعده من الكلام.

ولهذا المعنى يقول الله -عز وجل-: ﴿ الٓمٓ ﴾، و﴿ حمٓ ﴾، و﴿ طسٓ ﴾، و﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾.

فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد؛ ليكون ذلك داعيةً لهم إلى الاستماع لما بعده، والله أعلم بكتابه.

ولهذا جعل أكثر الابتداءات بـ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ لأن النفوس تتشوق للثناء

---

١ - انظر الخطابة ص٧٩.

على الله ؛ فهو داعيةُ الاستماع ». [١]

هذا وإن الخطباء يختلفون في استفتاحاتهم ؛ فمنهم من يستفتحها بما يشير إلى موضوعها، ويلوِّح بالقصد منها.

ومنهم من يبتدئ خطبته بآية ،أو حديث، أو حكمة، أو مثل سائر.

ومن الأساليب البديعة ما يبتدئ به بعضهم ؛ حيث يبتدئ بالثناء على السامعين ؛ ليهيء نفوسهم لتلقي كلامه بالقبول ؛ إذ لا شيء يهز أعطاف السامعين كالثناء عليهم، خصوصاً إذا كان من غريب عنهم.

وذلك باب واسع يصح الدخول فيه بشرط الاتزان، وضبط النفس.

ومنهم من يتودد للسامعين، ويتواضع لهم، ويخاطبهم بأحسن صفاتهم، ويشعرهم بمحبتهم، وأنه ساعٍ لما فيه مصلحتهم.

ومهما يكن من أمر الافتتاح فينبغي أن يكون قصيراً موجزاً ؛ لئلا يشغل الذهن، ويضيع الوقت.

وينبغي ـ أيضاً ـ أن لا يكون مبتذلاً تمجه الأسماع، ولا تسيغه النفوس.

ثم إن الافتتاح قد لا يلزم خصوصاً إذا أراد الإيجاز، بل يدخل في الموضوع مباشرة.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن يتجنب الواعظ ما يزعج السامعين في مفتتح كلامه، كما كان الحجاج بن يوسف يفعل في افتتاح خطبه ؛ حيث كان يبدأ بما يزعج السامعين كقوله في أحد افتتاحاته :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضعِ العمامة تعرفوني [٢]

---

١ ـ كتاب الصناعتين ص ٤٣٧.

٢ ـ انظر الخطابة ٨٢ ـ ٨٣.

ومما ينبغي ـأيضاًـ أن يتجنب كل ما يُستقبح ويستجفى من الكلام.

ولهذا عني علماء البلاغة في مبادئ الكلام، وعقدوا له الفصول في كتبهم، ونبهوا على ما ينبغي للكاتب، والشاعر، والخطيب في هذا الشأن.

قال أبو هلال العسكري ﷺ: «قال بعض الكتاب: أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات؛ فإنهن دلائل البيان.

وقالوا: ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله مما يُتطير منه، ويُستجفى من الكلام والمخاطبة، والبكاء، ووصف إقفار الديار، وتشتيت الأُلاف، ونعي الشباب، وذم الزمان لا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني، ويستعمل ذلك في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة؛ فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تَطَيَّر منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح»[1].

ثم ضرب ﷺ أمثلة على ذلك، منها قوله: «أنشد البحتري أبا سعيد قصيدة أولها:

لك الويل من ليلٍ تطاول آخره وَوَشْكُ نوى حيٍّ تزمُّ أباعره

فقال أبو سعيد: بل الويل والحرب لك، فغيره، وجعله: «له الويل» وهو رديء ـأيضاًـ.

وأنشد أبو مقاتلٍ الداعيَ:

لا تقل بُشرى ولكن بُشْريانْ غرةُ الداعي ويومُ المهرجان

فأوجعه الداعي ضرباً، ثم قال: هَلا قلت:

إن تقل بشرى فعندي بشريان»[2].

---

١ ـ كتاب الصناعتين ص ٤٣١.

٢ ـ كتاب الصناعتين ص٤٣٢.

ثم ذكر أبو هلال ﷺ أمثلة لابتداءات جياد، ومن ذلك قوله: «ومن أحكم ابتداءات العرب قول السموأل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عِرْضَه فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل [١]

وقال بعضهم: أحكم ابتداءاتهم قول لبيد ﷺ :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وبعضهم يجعل ابتداءات هذه القصيدة :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنَحْبٌ فيُقضى أم ضلالٌ وباطل [٢]

ومما ينبغي تَجنُّبُهُ في مفتتح الموعظة تحريج المخاطبين، وإلزامهم بسماع الموعظة، وتخويفهم من القيام قبل أن يكمل موعظته خصوصاً إذا كانت مفاجئة وعلى غير موعد.

وذلك كأن يبدأ كلامه بإيراد ما يخوفهم من ترك سماع الموعظة، أو أن يقول إذا بدأ ثمَّ رأى بعض الحاضرين قد انصرف: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ المدثر:٤٩.

أو أن يقول في بداية كلامه: من كان يحب الله ورسوله فليجلس إلى غير ذلك من الافتتاحات التي تغلق القلوب، وتُنفِّر من سماع الموعظة.

٢٨- **حسن الختام:** فالخاتمة هي آخر ما يلقيه الواعظ من كلامه، ولها الأثر البالغ الباقي؛ إذ هي آخر ما يَعْلَق بالنفس، وأكثر ما يتصل بالقلب.

فإن كان وقعها حسناً انسحب ذلك على الموعظة، وإلا ساء الأثر،

---

١ ـ كتاب الصناعتين ص٤٣٣.

٢ ـ كتاب الصناعتين ص٤٣٤.

وضاعت الغاية المنشودة.

ومما يحسن في الخاتمة أن تشتمل على جمال العبارة، وإصابة الغرض، وأن تتضمن إيجازاً لما ألقي، وأن تكون محركة للعاطفة.

٢٩ـ التنويع في أساليب الخطاب: فمما يحسن بالواعظ أن يأخذ بهذه الطريقة، فأحياناً يأتي بكلامه بصورة الاستفهام، وأخرى بصورة التقرير، وثالثة في صورة الطلب، ورابعة بإشارة، وخامسة بنداء، وهكذا...

ويحسن به ـأيضاًـ أن يغير ولو قليلاً ـمن نبرة صوته؛ ليكون ذلك مدعاة لتنشيط السامعين، وإيقاظ الغافلين.[١]

وسيأتي مزيد بيان لهذه الفقرة فيما بعد.

٣٠ - الترسل في الكلام وإلقاؤه مفصلاً دون إبطاء أو تعجيل : فيحسن بالواعظ أن يكون مترسلاً في كلامه، متمهلاً في إلقائه، وأن تكون موعظته متمايزة الحروف، مُفَصَّلة الكلمات؛ فمن متممات الفصاحة ألا يعجل الرجل بالكلام، بل يلقي الكلمات مفصلة حتى تقع في الذهن كأنها عِقْدُ جِيْدٍ أُحْكِمَ تَنْسيقُه.

ويحسن بالواعظ ـأيضاًـ ألا يبطّئ في كلامه إبطاءاً يخرجه عن طوره، ويجلب السآمة للسامعين؛ فالترسل والتمهل دون إبطاء أو تعجيل هو هدي النبي ﷺ في كلامه، ومواعظه.

قالت أم المؤمنين عائشة ـرضي الله عنهاـ: «كان النبي ﷺ يحدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه».[٢]

---

١ ـ انظر الخطابة ص٦٦.

٢ ـ أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

وقالت: «إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم».[١]

قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث الأول: «قولها: «لو عده العاد لأحصاه» : أي لو عدَّ كلماته، أو مفرداته، أو حروفه لأطاق ذلك، وبلغ آخرها.

والمراد بذلك المبالغة في الترتيل، والتفهيم».[٢]

وقال -رحمه الله- في شرح الحديث الثاني: «قولها: «لم يكن يسرد الحديث كسردكم» : أي يتابع الحديث استعجالاً بعضه إثر بعض؛ لئلا يلتبس على المستمع».[٣]

وجاء في سنن أبي داود عن جابر رضي الله عنه قال: «كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل، أو ترسيل».[٤]

وفيه أيضاً عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصْلاً يفهمه كل من سمعه».[٥]

قال أبو هلال العسكري رحمه الله: «علامةُ سكونِ نَفْس الخطيب ورباطة جأشه -هدوءه في كلامه، وتمهله في منطقه.

قال ثمامة: كان يحيى بن جعفر أَنْطَقَ الناس؛ فقد جمع الهدوء، والتمهل، والجزالة، والحلاوة.

ولو كان في الأرض ناطق يستغني عن الإشارة لكانه».[٦]

وقال ابن جماعة رحمه الله في أدب المتكلم: «ولا يسرد الكلام سرداً، بل

---

١ - أخرجه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).

٢ - ٤ - فتح الباري ٦ / ٦٦٩.

٤ - أبو داود (٤٨٣٨)، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٨٢٣): «حسن».

٥ - أبو داود (٤٨٣٩)، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٨٢٦): «حسن».

٦ - كتاب الصناعتين ص ٢٢-٢٣.

يرتِّله ويرتبه، ويتمهل فيه، ليفكر فيه هو وسامعه».[١]

٣١- ملاحظة نبرة الصوت : ويراعى في ذلك أن تكون مسموعة بوضوح، وأن تكون وسطاً بين رفع الصوت الذي يَخْرُج بصاحبه عن طوره ويؤذي المخاطبين، وبين رخاوة الصوت التي تفقد الموعظة أثرها، وتجلب التماوت للسامعين.

وقد يوهب بعض الناس صوتاً جهورياً فيحسن به أن يضبط نبرة صوته؛ حتى لا يرتفع أكثر من اللازم خصوصاً مع وجود المكبرات.

ومنهم من صوته خافتٌ جداً؛ فيحسن به أن يحاول إسماع المخاطبين قدر استطاعته.

وبالجملة فإن الاعتدال في رفع الصوت وخفضه هو المطلوب.

قال ابن جماعة ﷺ : «ألا يرفع صوته زائداً على قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة».[٢]

وقال: «والأولى ألا يجاوز صوته مجلسه، ولا يَقْصُرَ عن سماع الحاضرين؛ فإن حضر معهم ثقيل السمع فلا بأس بِعلو صوته بقدر ما يُسمعه».[٣]

ثم إن الواعظ البارع يستطيع التحكم بنبرة صوته؛ فحين يَحْسُن رفع الصوت فإنه يرفعه، وحين يحسن خفضه يخفضه.

جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم.[٤]

---

١ ـ تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص٥٧.

٢ ـ تذكرة السامع والمتكلم ص ٧٤.

٣ ـ تذكرة السامع والمتكلم ص٧٥.

٤ ـ مسلم (٨٦٧).

٣٢- حسن الاستخدام للتكرار: فإن للتكرار أثراً كبيراً في جذب الانتباه، وتأكيد المعاني، وتقريرها في الأذهان.

والواعظ البارع يحسن استخدام التكرار، ويوقعه في مواقعه اللائقة به؛ فإذا استدعى المقام التكرار، وكان فيه مزيد فائدة وتأكيد وتقرير كان لائقاً حسناً.

وذلك كأن يكون في الكلام موضع اهتمام، ويخشى أن يمر على أذهان السامعين دون أن يستقر في نفوسهم.

وإذا كان التكرار بهذه المثابة فإن يحسن بالواعظ أن يأخذ به عند الحاجة ما لم يجد أن المقام يستدعي الإيجاز.

ولقد كان النبي ﷺ يأخذ بهذا الأسلوب، وربما أعاد الجملة ثلاث مرات إذا كان المقام يقتضي ذلك.[1]

ولهذا عقد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه باباً بعنوان: «باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه».

وساق فيه عدة أحاديث، منها ما رواه عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه كان إذا سلّم سلّم ثلاثاً، وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً».[2]

وعن أنس -أيضاً- عن النبي ﷺ: «أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً؛ حتى تُفْهم عنه» الحديث.[3]

وعن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال تخلف رسول الله ﷺ في سفر سافرناه، فأدْركَنا وقد أرهقْنا الصلاة -صلاة العصر- ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «ويلٌ للأعقاب من النار»

---

١ - انظر محمد رسول الله ص ١٨٥، والخطابة ص٦٦.

٢ - البخاري (٩٤).

٣ - البخاري (٩٥).

مرتين أو ثلاثاً.[١]

والأحاديث في ذلك كثيرة منها قوله: «ألا وقول الزور، فما زال يكررها».[٢]

وقال ابن عمر -رضي الله عنهما- قال النبي ﷺ: «هل بلّغت» ثلاثاً.[٣]

وعن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «لا صام من صام الأبد، لا صام من صام الأبد، لا صام من صام الأبد».[٤]

ومن الأساليب الملائمة في التكرار، أن يكون بعبارات مختلفة، وأساليب متنوعة، وأن يكون النظر فيه إلى المعنى من جوانب متعددة.

أما إذا لم يكن هناك حاجة للتكرار فلا يحسن بالواعظ أن يأخذ به؛ لأنه -والحالة هذه- يعد من عيوب الكلام، ومما يورث الملالة، ويولد السآمة.

وذلك كحال من يعيد الكلام أو القصة، أو بعض الجمل في الموعظة دون مسوغ لذلك، أو أن يعيد الموعظة بعينها بعد فترة وجيزة في المكان الذي ألقاها فيه؛ فالنفوس تكره المعاد، وتمل المكرر، إذا لم يكن هناك داع له.

«قال محمد بن صبيح المعروف بالسّماك لجاريته: كيف ترين ما أعظ الناس؟

قالت: هو حسن، إلا أنك تكرره.

قال: إنما أكرره؛ ليفهمه من لم يكن فهمه.

قالت: إلى أن يفهمه البطيء يثقل على سماع الذكي».[٥]

---

١ - البخاري (٩٦)، ومسلم (٢٤١).

٢ - البخاري (٢٥٨٦).

٣ - رواه البخاري (١٧٤٢).

٤ - رواه مسلم (١١٥٩).

٥ - زهر الأدب ١ / ١٩٦.

بهائه، وأريق من مائه، وأُخْلِقَ من جدَّته ـ لأعدتُه».[1]

وقال أبو تمام يصف قصائده:

منزهة من السَّرق المورَّى مكرمة عن المعنى المعاد[2]

وقال آخر:

إذا تحدثت في قوم؛ لتؤنسهم من الحديث بما يمضي وما ياتي
فلا تكررْ حديثاً إن طَبْعَهُمُ موكّلٌ بمعاداة المعادات[3]

ومما يحسن التنبيه عليه أنه لا بأس بتكرار الموعظة الواحدة في أكثر من مكان؛ لأن الحاجة قد تقتضي ذلك، ولا يلزم الواعظ أن يأتي بموعظة جديدة في كل مكان.

بل عليه ألا يضيق ذرعاً بإعادة ما يقول، أو تكراره للموعظة إذا ألقاها في أماكن متعددة، أو ألبسها ثياباً جديدة ملائمة.

٣٣ـ توشيح الموعظة بالقرآن الكريم والأحاديث الصحيحة:

فيحسن بالموعظة أن تُجمَّل بالآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة؛ فالكتاب العزيز، والحديث الشريف هما الذروة في البلاغة، وفيهما اللفظ الجزل، والأسلوب الرائع، والسلامة من الخطأ.

كما أن لهما قوة في التأثير، ورنيناً في الآذان، ورهبة في القلوب، وجمالاً في الأنفس، وبهجة في المشاعر.

وفيهما فصل الخطاب، وقطع كل جواب، والرد على كل اعتراض.

---

١ ـ زهر الأدب ١ / ١٩٦.

٢ ـ ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ١ / ٣٨٢.

٣ ـ إصلاح المجتمع ص٣٦٠.

فلا يليق -إذاً- أن تخلوا الموعظة من إيراد الآيات والأحاديث فيها.

وكانوا يسمون الخطبة التي تخلوا من ذلك: «الشوهاء».

قال الجاحظ: «وعلى أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان من التابعين بإحسان مازالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدئ بالتحميد، وتستفتح بالتحميد: «البتراء».

ويسمون التي لم توشح بالقرآن، وتزيَّن بالصلاة على النبي ﷺ «الشوهاء».

وقال عمران بن حطان: خطبت عند زياد خطبة ظننت أني لم أُقَصِّرْ فيها عن غاية، ولم أدع لطاعن علة؛ فمررت ببعض المجالس، فسمعت شيخاً يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن.

وخطب أعرابي، فلما أعجله بعضُ الأمر عن التصدير بالتحميد، والاستفتاح بالتمجيد قال: «أما بعد بغير ملالة لذكر الله، ولا إيثار غيره عليه فإنا نقول: بكذا، ونسأل كذا»؛ فراراً من أن تكون خطبته بتراء، أو شوهاء».[1]

٣٤- سَوْقُ القصص الصحيحة المؤثرة: فالقصص تحمل في طياتها الدروس، والعبر، كما أنها سبيل التأسي، وطريق النظر في العواقب.

والقرآن الكريم حافل بالقصص التي وردت في مواضع متعددة، وفي سياقات مختلفة.

ومن تلك القصص قصص الأنبياء -عليهم السلام- كقصة نوح، وإبراهيم، ويوسف، وموسى وعيسى وغيرهم.

---

١ ـ البيان والتبيين ٢ / ٦.

ومن ذلك قصص الطواغيت، وأئمة الكفر كفرعون، وقارون، وهامان، وغيرهم.

وكذلك السنة النبوية فهي مليئة بالقصص.

فيحسن بالواعظ أن يأخذ بهذا الأسلوب في بعض الأحيان، وأن يحرص على صحة القصة التي يسوقها.

كما يحسن أن ينوع في القصص، وأن يستنبط منها العبر، والدروس؛ فيورد -على سبيل المثال- قصص أهل الإيمان، وما حصل لهم من البلاء وكيف كانت العاقبة لهم.

ويسوق قصص أهل الكفر والفسوق وماذا حل بهم من الشقاء، وما ينتظرهم في الآخرة من أليم العقاب وهكذا...

ويجمل به أن يربط ذلك بحاضر الناس، وأن يبين ما يحل بمن طغى وتجبر وآثر الحياة الدنيا من المَثُلات.

ويحسن به ألا يبالغ في إيراد القصص، وأن يتجنب ما ليس صحيحاً منها، أو ما يظن أن السامعين لن يصدقوه إذا قالها.

٣٥- توشية الموعظة بالحكم الرائعة، والأشعار الجميلة الرائقة:
فذلك مما تهتز له النفوس، ويحسن وقعه في الأسماع، خصوصاً إذا كان الاستشهاد بها مناسباً ملائماً؛ فيحسن أن تُجَمَّل المواعظ العامة أحياناً بما يناسب المقام، ويتصل بالموضوع.

قال محمد بن سلام عن بعض أشياخه قال: «كان عمر بن الخطاب ﷺ لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر».[1]

---

١ ـ البيان والتبيين ١ / ٢٤١.

وكثيراً ما يَنْهَضُ الرجل للعمل الصالح يكون في غفلة عنه، وما ينبهه إلا بيت شعر يحتوي على حكمة.

قال ابن جريج ﷺ: «ما ظننت أن الله ـ عز وجل ـ ينفع أحداً بشعر عمر بن أبي ربيعة حتى سمعت وأنا باليمن منشداً ينشد قوله:

بالله قولي له في غير مَعْتَبَةٍ ... ماذا أردتَ بطول المُكْثِ في اليمن
إن كنتَ حاولت دنيا أو نَعِمْتَ بها ... فما أخذتَ بترك الحج من ثمن

فحركني ذلك على الرجوع إلى مكة، فخرجت مع الحاج وحججت».[1]

وجاء هذا الخبر في وفيات الأعيان أن ابن جريج قال: «كنت مع معن بن زائدة باليمن فحضر وقت الحج، ولم تحضرني نية، فخطر ببالي قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

بالله قولي له في غير مَعْتَبَةٍ ... ماذا أردت بطول المكث في اليمن
إن كنتَ حاولتَ دنيا أو نَعِمْتَ بها ... فما أخذتَ بترك الحج من ثمن

قال: فدخلت على معن، فأخبرته أني قد عزمت على الحج، فقال لي: ما يدعوك إليه ولم تكن تذكره؟

فقلت: ذكرت بيتين لعمر بن أبي ربيعة، أنشدته إياها، فجهزني، وانطلقت».[2]

٣٦- صوغ التشابيه، وضرب الأمثلة: فمن الأساليب الناجعة النافعة في الوعظ صوغ التشابيه البديعة، وضرب الأمثلة الرائعة.

---

١ ـ الأغاني للأصفهاني ١ / ١١١ ـ ١١٢.

٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ٥١٢، وانظر نوادر في الأدب لمحمد المكي بن الحسين ص ٣١ ـ ٣٢.

وللتشبيه، والتمثيل أثر كبير في جعل الحقائق الخفية واضحة، والمعاني الغريبة قريبة مألوفة.

وعلى هذا النحو تجري كثير من نصوص الوحيين.

قال الله -تعالى- في شأن المنافقين: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ البقرة: ١٧.

وقال النبي ﷺ في شأن المؤمنين وتآلفهم: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». [(١)]

ثم إن للأمثال فوائد أخرى؛ فمن ذلك أن المثل يضرب للترغيب في المُمَثَّل به؛ حيث يكون مما تستحسنه النفوس، وتَرْغَبُ فيه.

ومن ذلك ما ضربه الله -عز وجل- لحال المنفق في سبيل الله؛ حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير فقال -تعالى-: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾ البقرة: ٢٦١.

وقد يضرب المثل للتنفير من العمل؛ حيث يكون المُمَثَّل به مما تكرهه النفوس، وتنفر منه كما ضرب الله المثل لحال المغتاب فقال -تعالى-: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ الحجرات: ١٢.

ويضرب المثل لمدح المُمَثَّل؛ حيث يكون في الممثل به صفاتٌ تستحسنها النفوس، وتمدح من يحرز مثلها، كما ضرب الله مثلاً لحال الصحابة -رضي الله عنهم- فقال -عز وجل-: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ

---

١ - أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨).

كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ الفتح: ٢٩.

فالزرع يخرج شطأه، وهو ما تفرع في شاطئيه: أي جوانبه، ثم يقوى، ويستغلظ: أي يصير بعد الدقة غليظاً، وكذلك حال الصحابة؛ فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلاً، ثم أخذوا في النمو حتى استحكم أمرهم، وامتلأت القلوب؛ إعجاباً بهم.

ويضرب المثل للذم حيث يكون للممثَّل به صفة يستقبحها الناس، ويذمون من رضي لنفسه بمثلها، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فنكث يده من العمل به، وانحط في أهوائه، فقال -تعالى-: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ ﴾ الأعراف: ١٧٦.

فقد مثل الله -عز وجل- في هذه الآية بحال الكلب الذي هو من أخبث الحيوان وأخسها نفساً؛ ذلك أن المنحط في أهوائه شديد اللهف على الدنيا، قليل الصبر عنها، فلهفه نظير لهث الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه.

وبالجملة فالكلام على أمثلة القرآن والسنة كثيرة جداً، والمقصود من ذلك بيان أن ضرب الأمثال سلاحٌ ماضٍ في يد الواعظ إذا أحسن استخدامه.[١]

٣٧- الحرص على الإعراب، والبعد عن اللحن قدر المستطاع:

---

١ ـ انظر كتاب الصناعتين ص٢٣٩ ـ ٢٥٩، ومحمد رسول الله ص١١٤، وبلاغة القرآن للشيخ محمد الخضر حسين ص ٢٨ـ٤٠.

فالإعراب عماد الكلام، وجماله ووَشْيُه؛ فيحسن بالواعظ أن يحرص على تقويم لسانه وأن يتجنب اللحن خصوصاً إذا كان يحيل المعنى؛ فالإعراب، وقلة اللحن يضفيان على الموعظة جمالاً، وقبولاً -خصوصاً إذا كانت بين أناس يدركون ذلك-.

ولا يعني ذلك أن تصرف الهمةُ إلى الإعراب، أو أن يتكلف الإنسان ذلك أكثر من اللازم، أو ألا يلقي الواعظ موعظته إلا إذا كان متمكناً من الإعراب.

وإنما المقصود من ذلك السعي إلى الكمال قدر المستطاع.

٣٨- التذكير بمآلات الأمور: فمن الطرق المجدية في الوعظ تذكير الناس بما يصير إليه المتقون من عزٍّ وسلامة، وما يلحق المجرمين من خزيٍ ومهانة وندامة.

ومن التذكير ما يرجع إلى البشارة بالخير في الدنيا، والحسنى في الآخرة، ومنه ما يرجع إلى الإنذار بسوء المنقلب في هذه الدار، أو عذاب الهون في تلك الدار.

وللبشارة والإنذار أثر كبير في حث المؤمنين على الحسنات، وردعهم عن السيئات.

وأثر البشارة والإنذار في غير المؤمن أنهما يدعوانه إلى النظر في الدعوة، وإذا نظر بروية أدرك أنها حق؛ فيفتح لها صدره، ويمدُّ لها عنقه مذعناً.[1]

٣٩- اعطاء الوسائل صورة ما تُفضي إليه من الخير والشر: فهذا الأسلوب من الطرق الحكيمة في الحث على فعل الشيء، أو الزجر عنه.

ويشهد لذلك كثير من النصوص، منها قوله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله».[2]

١ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١١١-١١٢.

٢ - أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٤، وقال الألباني في صحيح الجامع: (٣٣) «صحيح»، ورواه مسلم (١٨٩٣) =

فقد أراك الدلالة على فعل الخير في صورة فعل الخير نفسه؛ إذ جعلها بوسيلة التشبيه بمنزلة واحدة، وذلك مما يقوي داعية الدلالة على الخير في نفسك.

وكما قال ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه»

قيل: يا رسول الله! وكيف يلعن الرجل والديه؟

قال: «يسب الرجل أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسب أمَّه، فيسب أمَّه».[١]

فانظر كيف عدَّ سبَّ الرجلِ لأبي الرجل أو أمه في صورة سب الرجل لوالديه، وفي ذلك من تأكيد الزجر عن إطلاق اللسان بالسب ما لا تجده في النهي عن سب الناس بطريق غير هذا الطريق.[٢]

٤٠ - قرن القول ببعض الإشارات الحسية التي تناسب المعنى: فهذا مما يزيد به المعنى جلاءاً، ويأخذ في النفس صورةً غير صورته المجردة عن الإشارة.

ولقد كان النبي ﷺ يستعين في تثبيت المعنى بالإشارة بيده إشارة مناسبة للمعنى، مما يجعل للموعظة أثراً بليغاً في النفوس.

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما جاء في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه.[٣]

وفي صحيح البخاري عن سهل ﷺ قال رسول الله ﷺ «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما شيئاً».[٤]

بلفظ «من دل على خير فله مثل أجر فاعله».

١ - أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).

٢ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١١٥.

٣ - البخاري (٤٨١ و ٢٤٤٦ و ٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

٤ - البخاري (٥٣٠٤ و ٦٠٠٥).

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قام عند باب حفصة فقال بيده نحو المشرق: «الفتنة من ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان» قالها مرتين أو ثلاثاً.[١]

٤١- توجيه السؤال للمخاطبين: وذلك بسؤالهم عن الشيء الذي يريد تعليمهم إياه، أو تذكيرهم به؛ لما في السؤال من تهيئة النفوس للإصغاء إلى ما يقال بعد ذلك، ولما فيه -أيضاً- من تشويقها إليه؛ فيقع منها في قرار مكين.

ولقد كان النبي ﷺ يأخذ بهذا الأسلوب كثيراً.

جاء في الصحيحين عن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار يقال له: عفير، فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً».

فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟

قال: «لا تبشرهم فيتكلوا».[٢]

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ومنها على سبيل الإجمال قوله ﷺ: «أتدرون أي شهر هذا؟».[٣]

وقوله: «أتدرون أي يوم هذا؟».[٤]

١- رواه البخاري (٣١٠٤ و ٧٠٩٣)، ومسلم (٢٩٠٥).

٢- البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

٣- رواه البخاري (٦٠٤٣).

٤- رواه البخاري (١٧٤١).

وقوله: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟».[١]

وقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم؟».[٢]

وقوله: «أتدرون أين تغرب الشمس؟».[٣]

ومما يحسن التنبيه عليه أن هذا الأدب يليق إذا صدر من كبير لمن دونه، وإذا صدر ممن له مكانة، وقبول عند الناس عموماً، أو عند مَنْ يلقي عليهم.

أما من كان في بداية وعظه، أو حداثة سنه، أو من ليست له مكانة عند من يلقي عليهم ـفقد لا يليق به هذا الأسلوب؛ لأن النفوس قد لا تستسيغ أن يوجه إليها السؤال من كل أحد.

٤٢- استدعاء طلب البيان: وهذا الأسلوب قريب مما قبله.

وذلك أن يأتي الواعظ بالكلام على وجه الغموض يستدعي به طلب البيان، حتى إذا سئل عن ذلك، أو شعر بحاجة المخاطبين إلى الجواب ـأجاب عن ذلك، وكشف الغموض، فيتقرر المعنى في نفوسهم بأشد مما لو أتى من أول الأمر واضحاً بيناً.[٤]

ومن هذا الباب قوله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

فقال رجل: يا رسول الله! انصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟

قال: «تحجزه، أو تمنعه من الظلم؛ فإن ذلك نصره».[٥]

---

١ ـ رواه البخاري (٥٠).

٢ ـ رواه البخاري (٤١٤٧).

٣ ـ رواه البخاري (٤٨٠٢).

٤ ـ انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١١٦.

٥ ـ رواه البخاري (٦٩٥٢).

وفي رواية «تأخذ فوق يديه». [١]

٤٣- إثارة العواطف، ومخاطبة الوجدان: ذلك أن مرمى الإقناع في الوعظ ليس هو الإلزام والإفحام فحسب، وإنما مرماه حمل المخاطب على الإذعان، والتسليم بطوعه، وإرادته.

وذلك لا يتسنى بسوق الدلائل المنطقية جافة، ولا بإيراد البراهين العقلية عارية، بل بذلك وبإثارة العاطفة، ومخاطبة الوجدان.

بل قد يستغني الواعظ عن الدلائل العقلية، ولا يمكنه بأية حال أن يستغني عن المثيرات العاطفية؛ إذ هي من أعظم الأدوات التي تعينه على التأثير في السامعين. [٢]

٤٤- استعمال أسلوب النداء، ومناداة المخاطبين بما يحبون: وذلك بشد انتباه المخاطبين، واستدعاء استجابتهم بنداءات يطلقها الواعظ في ثنايا حديثه بين الفينة والأخرى.

ومن ذلك أن يقول: أيها المؤمنون، أيها الناس، معاشر المسلمين، أيها الإخوة.

وإن كان هناك نسوة وجه النداء إليهن؛ ففي ذلك تنبيه، وتشويق، وتغيير لنمط الحديث.

ولقد تكرر هذا المعنى كثيراً في القرآن والسنة.

ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ آل عمران: ١٠٢.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن

---

١ - رواه البخاري (٢٤٤٤).

٢ - انظر الخطابة ص ٥٣.

نَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ النساء: ١ الآية.

والأمثلة من السنة على ذلك كثيرة، ومنها على سبيل الإيجاز ما يلي:

قال -عليه الصلاة والسلام-: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم».[1]

وقال: «أيها الناس إليَّ».[2]

وقال: «أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا بي، ولتعلموا صلاتي».[3]

وقال: «أيها الناس تصدقوا».[4]

وقال: «أيها الناس عليكم بالسكينة».[5]

وقال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو».[6]

وقال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج».[7]

وقال: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب؟».[8]

وقال: «يا معشر النساء تصدقن».[9]

وقال: «يا معشر يهود أسلموا تسلموا».[10]

---

١ - رواه البخاري (٦٣٨٤).

٢ - رواه البخاري (٩٢٧).

٣ - رواه البخاري (٩١٧).

٤ - رواه البخاري (١٤٦٢).

٥ - رواه البخاري (١٦٧١).

٦ - رواه البخاري (٢٩٦٦).

٧ - رواه البخاري (٥٠٦٥).

٨ - رواه البخاري (٧٥٢٣).

٩ - رواه البخاري (٣٠٤ و ١٤٦٢).

١٠ - رواه البخاري (٦٩٤٤).

ومن اللطف في الموعظة أن ينادي الواعظ من يعظهم بلقبهم الشريف، وأن ينعتهم بوصف شأنه أن يبعث صاحبه على قبول الموعظة.

وهذا الأدب مقتبس من مثل قوله -تعالى- : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقوله -عز وجل- : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

وقد وصف النبي ﷺ هرقل في كتاب دعوته إلى الإسلام بعظيم الروم.[1]

٤٥- الجمع بين الخوف والرجاء: فلا بدَّ للواعظ أن يجمع بين هذين الأمرين في موعظته؛ إذ هما جناحا العبادة، ولا تستقيم أحوال العباد إلا بالجمع بينهما، والواعظ الحكيم يحسن الجمع بينهما في موعظته؛ لأن الخوف يردعهم عن التمادي في المعاصي، والرجاء يفتح لهم أبواب التوبة، والإقبال على العمل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «فلا يحل لأحد أن يَقْنَط من رحمة الله ولا أن يُقَنِّط الناس من رحمته؛ لذا قال بعض السلف: وإن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا يجرؤهم على معاصي الله».[2]

قال الله -عز وجل- :﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ الحجر.

ومن فقه الإمام مسلم رحمه الله أنه ساق في صحيحه حديثين عظيمين متتاليين: أحدهما يناسب الخوف وهو حديث المرأة التي سجنت الهرة، والآخر يناسب الرجاء وهو حديث المرأة البغي التي سقت كلباً.

---

١ - انظر صحيح البخاري (٢٩٤٠ و ٤٥٥٣).

٢ - التوبة والاستغفار لابن تيمية تحقيق الحجاجي، وبدران ص ٢٧-٢٨، وانظر الاستقامة لابن تيمية ٢ / ١٩٠.

وإليك الحديثين مع تعليق الزهري رحمه الله.

قال النبي ﷺ: «عذِّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت النار؛ لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».[١]

وقَالَ ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ[٢] بِرَكِيَّةٍ[٣] كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا[٤]، واستقَت له به، فَسَقَتْهُ إياه، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ».[٥]

قال الزهري رحمه الله: «لئلا يتكل رجل، ولا ييأس رجل».[٦]

٤٦ـ مراعاة المصالح والمفاسد: فلا يكفي مجرد سرد النصوص، وتنزيلها على أحوال معينة، خصوصاً عند الفتن واشتباه الأمور.

ولا يكفي إلقاء الكلمة دونما نظر في عواقبها، وما تحدثه من أثر.

بل لابدَّ من الرواية، والاستنارة بأقوال أهل العلم، واستشارة أهل الفقه والبصيرة، ولابد من النظر في المصالح والمفاسد.

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «قوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ الأعلى:٩ مفهوم الآية أنه إذا ترتب على التذكير مضرة أرجح تُرِكَ التذكير؛ خوف وقوع المنكر».[٧]

---

١ ـ مسلم (٢٢٤٢).

٢ ـ يطيف: يدور.

٣ ـ الركية: البئر.

٤ ـ الموق: الخف.

٥ ـ مسلم (٢٢٤٥).

٦ ـ مسلم (٢٦١٩).

٧ـ فتح الرحيم الملك العلام ص١٦٤.

وقال ابن القيم ﷺ : «فإذا كان إنكار المُنكَر يستلزم ما هو أنكر منه، وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه، ويمقت أهله».

وقال: «ومن تأمل ما جرى في الإسلام من الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولّد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها».

بل لما فتح الله مكة، وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت، وردّه على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك -مع قدرته عليه- خشيةُ وقوع ما هو أعظم منه، من عدم احتمال قريش لذلك، لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر». [1]

وقال ﷺ : «فإنكار المنكر أربع درجات: الأولى: أن يزول ويخلفه ضدُّه

والثانية: أن يَقِلَّ، وإن لم يزل بالجملة.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شرٌّ منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة محلُّ اجتهاد، والرابعة محرمة.

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون الشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله كرمي النُّشاب، وسباق الخيل، ونحو ذلك.

وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو، أو لعب، أو سماع مكاء وتصدية فإن نقلتهم إلى طاعة الله فهو المراد.

وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تُفرِغَهم لما هو أعظم من ذلك؛

---

١ - إعلام الموقعين لابن القيم ٣ / ٦.

فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك.

وكما إذا كان الرجل مشتغلاً بكتب المجون ونحوها، وخِفتَ من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فَدَعْهُ وكتبه الأولى، وهذا باب واسع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه ونورَّ ضريحة- يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر؛ فأنكر عليهم مَنْ كان معي؛ فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكره وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس، وسبي الذرية، وأخذ الأموال؛ فَدَعْهم». [1]

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذا في الفقرة التالية.

٤٧ - **تحديث الناس بما يعقلون:** فمن السياسة والحكمة في الدعوة أن يخاطَب كل قوم بما يفهمون، وأن يُتحامى مخاطبةُ أحدٍ بما لا يحتمله عقله؛ فذلك أدعى لقبول الموعظة، والبعد عن مواطن النفرة والتكذيب.

قال أمير المؤمنين علي ﷺ: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!». [2]

وقال ابن مسعود ﷺ: «ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». [3]

وقال ابن الجوزي ﷺ: «من المخاطرات العظيمة تحديث العوام بما لا تحتمله عقولهم، أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده». [4]

---

١ - إعلام الموقعين ٣/ ٦ - ٧.

٢ - أخرجه البخاري (١٢٧).

٣ - أخرجه مسلم في مقدمة صحيحة (٥).

٤ - صيد الخاطر ص٧٤.

وقال: «فالله الله أن تحدث مخلوقاً من العوام بما لا يحتمله دون احتيال وتلطف؛ فإنه لا يزول ما في نفسه، ويخاطر المحدِّث له بنفسه». [١]

ومما يعين على فهم السامعين، وعَقْلهم لما يلقى إليهم، ووقوعه في قرارات نفوسهم ـ أن تكون الموعظة بألفاظ مأنوسة، وتأليف محكم، ومعانٍ بارزة.

وهكذا كانت مواعظ النبي ﷺ وخطبه؛ فهي مصوغة بألفاظ مألوفة، ومعانٍ قريبة المأخذ.

وهي مع قرب معانيها من أذهان الجمهور قد حازت في مراقي البلاغة الأمد الأسمى. [٢]

قال أبو هلال العسكري ﵀: «فمدار البلاغة على تخيُّرِ اللفظ، وتخيُّرُه أصعب من جمعه وتأليفه». [٣]

وقال: «قال أبو داود: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدُّرَبة، وجناحها رواية الكلام، وحَلْيها الإعراب، وبهاؤها تخير الكلام، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه». [٤]

ولهذا فإن الواعظ البارع هو الذي يصوغ موعظته بما تحتمله العقول؛ فللعامة لغة، وللخاصة لغة، وللكبار لغة، وللصغار لغة، وللرجال لغة، وللنساء لغة، وهكذا، وقد مرَّ شيء من هذا القبيل في فقرة ماضية.

ومن تحديث الناس بما يعقلون أن تكون الموعظة ملائمة لكافة الطبقات؛ إذ هي تلقى على طبقات من الناس متفاوتة في العلم والفهم؛ فيحسن بالواعظ ألا يتعرض في موعظته إلى المسائل التي قد يتعثر فهمها على كثير منهم، أو أن

---

١ ـ صيد الخاطر ٧٥.

٢ ـ انظر محمد رسول الله وخاتم النبين ص١٨٥.

٣ ـ كتاب الصناعتين ص٢٣.

٤ ـ كتاب الصناعتين ص ٥٨.

يتناولوها على غير وجهها.

وكانت خطب الرسول ﷺ جارية على هذا النحو ؛ بحيث يستوي في فهمها الطبقاتُ المختلفةُ دون أن يجدوا فيها ما ينبو عنه الفكر ، أو يحار فيه العقل.[(١)]

ولقد كان الصحابة -رضي الله عنهم- يراعون هذا الأدب الحكيم ؛ فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «كنت أُقْرِئ رجالاً من المهاجرين منهم عبدالرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجها إذ رجع إليَّ عبدالرحمن فقال لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً ؛ فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة ، فتمت.

فغضب عمر ثم قال: إني -إن شاء الله- لقائمٌ العشيةَ في الناس ، فمحذِّرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم

قال عبدالرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين! لا تفعل ؛ فإن الموسم يجمع رَعاعَ الناس وغوغاءهم ؛ فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس ، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيِّرها عنك كل مُطَيِّر ، وأن لا يعوها ، وأن لا يضعوها على مواضعها ؛ فأَمْهِلْ حتى تَقْدُمَ المدينة ؛ فإنها دار الهجرة والسنة فَتَخْلُصَ بأهل الفقه وأشراف الناس ، فتقول ما قلت متمكناً ، فيعي أهل العلم مقالتك ، ويضعونها على مواضعها.

فقال عمر: أما والله-إن شاء الله-لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة» الحديث.[(٢)]

ومما يحسن في هذا الصدد أنْ يُبْتَعَد عن مواطن الخلاف ؛ فإن ذكره قد لا

---

١ ـ انظر محمد رسول الله ص١٨٧.

٢ ـ البخاري (٦٨٣٠).

يناسب الموعظة؛ لأنها تُلقى على عامة، وقد يكون ذلك مضلّة لأفهامهم، مبعداً لهم عن الهدى.

٤٨- الاعتدال في الطرح، والحذر من المبالغة وتضخيم الأمور: فيحسن بالواعظ أن يكون مُتَّزناً في طرحه بعيداً عن التهويل والتهوين؛ لأن الحقيقة تضيع بين ذلك، والعرب تقول في أمثالها: «خير الناس هذا النمط الأوسط».

يعني بين المقصر والغالي.[١]

ومما يدل على حكمة الواعظ، ورجحان عقله، وحرصه على الحقيقة - لزومُه الاعتدال، وألا يسرف في مدح ولا ذم، ولا في وعد ولا وعيد؛ فإن الإسراف مظنَّةُ الكذب، والاعتدال مظنة الصدق.

٤٩- انشراح الصدر للنقد الهادف: فالواعظ المخلص من يسعى لإرضاء الله -جل وعلا- فتراه يبذل كل سبب في سبيل نفع الناس؛ ابتغاء الأجر من الله؛ ولهذا لاتراه يتأذى من ملحوظة تقدم إليه ولو صاغها مقدِّمُها في جفاء وغلظة؛ بل تراه يفرح بالنقد الهادف كفرحه بالثناء الصادق، بل ربما طلب ذلك من غيره، وهذا مما يرفع قدره، ويرتقي بعلمه، ووعظه.

وهذا هو دأب الأكابر والعظماء.

قال عمر بن عبدالعزيز لمولاه مزاحم -رحمهما الله-: «إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي؛ فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها، أو أفعالاً لا تحبها -فعظني عنده، وانهني عنه».[٢]

٥٠- الإقبال على الله، وإحسان معاملته -عز وجل-: فذلك من أعظم الأسرار لنجاح الواعظ، ومن أكبر أسباب توفيقه وإعانته، وإقبال الناس عليه.

---

١ - مجمع الأمثال للميداني ١ / ٤٣٢.

٢ - عيون الأخبار ٢/ ١٨.

قال أبو حازم ﷺ : «لا يحسن عبدٌ فيما بينه وبين الله -تعالى- إلا أحسن الله فيما بينه وبين العباد، ولا يعوّر[١] فيما بينه وبين الله -تعالى- إلا عوّر الله فيما بينه وبين العباد، ولُمصَانَعَةُ وجهٍ واحدٍ أيسر من مصانعة الوجوه كلّها؛ إنك إن صانعت الله مالت الوجوه كلُّها إليك، وإذا أفسدت ما بينك وبينه شنأتك الوجوه كلُّها».[٢]

وقال ابن الجوزي ﷺ : «وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص، وتحبه أوتأباه، وتذمه، أو تمدحه وفْق ما يتحقق بينه وبين الله -تعالى- فإنه يكفيه كل هم، ويدفع عنه كل شر.

وما أصلح عبدٌ ما بينه وبين الخلق دون أن ينظر إلى الحق إلا انعكس مقصوده، وعاد حامده ذاماً».[٣]

وقال ﷺ : «فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبة، فاللهَ اللهَ في السرائر؛ فإنه ما ينفع مع فسادها صلاحُ ظاهرٍ».[٤]

٥١- **احتساب الأجر:** فالواعظ الناصح المخلص يلقي الموعظة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً، وربما كانت سبباً لهداية ضال، أو ردع متمادٍ، أو إنهاض متكاسل، أو فتح باب من أبواب الخير، أو إغلاق لباب من أبواب الشر؛ فإذا ألقى الناس السمع للواعظ أفادوا منه كلٌّ بحسبه.

ولا ريب أن الدال على الخير كفاعله، فكم من الأجور العظيمة المتنوعة التي ينالها الواعظ من جراء وعظه وتذكيره، وهذا مما يبعثه إلى مزيد من

---

١ ـ يعور: يهدم ويفسد.

٢ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي ٦ / ١٠٠.

٣ ـ صيد الخاطر ١٠٨ ـ ١٠٩.

٤ - صيد الخاطر ص٣٥٥.

البذل، ومضاعفة الجهد.

٥٢- ألا ينتظر الواعظ الشكر إلا من خالقه: لا ريب أن شكر الناس من شكر الله، وأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس.

ولا ريب أن شكر المحسن على إحسانه مطلوب، وأنه مما تنشرح له الصدور، وتزداد إقبالاً على إقبال.

ولا أحد أحسنُ قولاً، ولا أولى بأن يشكره غيرهُ من الداعي إلى الله؛ إذ هو الذي يقدم للناس حياتهم الحقة.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فصلت:٣٣.

ولكن قد يحصل في بعض الأحيان أن يُقَابَل الواعظُ بشيء من الجحود، والكنود، والجفاء.

فإذا مرت بك هذه الحال -أيها الواعظ- فلم تُنصَف، ولم تعط قدرك، وردَّ عليك فضلك باليمين والشمال - فلا يَكْبُرْ ذلك في صدرك ويحملْك على ترك الوعظ، والنصح، بل قابل ذلك بصدر رحب، ونفسٍ راضية، وانتظر الشكر من خالقك؛ فعملك -هذا- ﴿ عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ طه:٥٢.

قال ابن حزم ﷺ بعد أن تحدث عن مذاهب الناس في طرد الهم: «وجدت العمل للآخرة -سالماً من كل عيب، خالصاً من كل كدر -موصلاً إلى طرد الهم على الحقيقة.

ووجدتُ العامل للآخرة إن امتُحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يسرُّ؛ إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال عونٌ له على ما يطلب، وزايدٌ في الغرض الذي إياه يقصد.

ووجدتُه إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم؛ إذ ليس مؤاخذاً بذلك؛ فهو غيرُ مُؤثِر في ما يطلب.

ورأيته إن قُصِد بالأذى سُرَّ، وإن نَكبته نكبةٌ سرَّ، وإن تعب فيما سلك فيه سرَّ؛ فهو في سرورٍ أبداً، وغيره بخلاف ذلك أبداً؛ فاعلم أنه مطلوب واحد، وهو طرد الهم، وليس إليه إلا طريق واحد، وهو العمل لله ـ تعالى ـ.

فما عدا هذا فسخفٌ وضلال». [١]

٥٣- الحذر من الورع الخادع الكاذب: ومن ذلك أن يَدَعَ الداعيْ الوعظ؛ حذراً من أن يخالط قصدَه الرياءُ، والتطلع للسمعة؛ فيقلُص نور إخلاصه، ويفوته ثواب الله في الدار الآخرة.

ولا ريب أن شأن الإخلاص عظيم، وأن عليه مدارَ العمل.

ولكنَّ ترك الدعوة بمثل هذا الوسواس ورعٌ خادع.

وما على الواعظ إلا أن يجاهد نفسه، وأن يأخذها بالإخلاص ما استطاع؛ فمخافة الرياء تجاه فائدة الدعوة إلى الخير لاغيةٌ؛ لأن تلك المخافة متوقعة، وفائدة الدعوة حاصلة ـ بإذن الله ـ؛ فلا تُقَدَّمُ المفسدةُ المتوقعة على الفائدة الحاصلة.

ولو ركن كلُّ داعٍ إلى هذا الخاطر لتعطلت الدعوة، ولقلت المجاهدة، ولظفر الشيطان بما أراد.

ومما يجدر التنبيه عليه أن الخوف من الرياء إنما يعظم في بدايات الإنسان الأولى؛ فإذا استمر على دعوته، ووعظه، ونفعه للناس لم يكد ذلك الخاطر يَمُرُّ على باله.

وإليك هذه النصيحة الذهبية من إمام الوعظ في زمانه الإمام ابن الجوزي

---

١ ـ الأخلاق والسير ص٦٣

ﷺ حيث يقول: «ما زالت نفسي تنازعني بما يوجبه مجلسُ الوعظ، وتوبةُ التائبين، ورؤية الزاهدين -إلى الزهد والانقطاع عن الخلق، والانفراد بالآخرة.

فتأمَّلتُ ذلك، فوجدت عمومه من الشيطان؛ فإن الشيطان يرى أنه لا يخلو لي مجلسٌ من خلق لا يحصون يبكون ويندبون على ذنوبهم، ويقوم -في الغالب- جماعةٌ يتوبون، ويقطعون شعور الصِّبا، وربما اتفق خمسون ومائة.

ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة، وعمومهم صبيان قد نُشِّؤوا على اللعب، والانهماك في المعاصي.

فكأن الشيطان -لبعد غوره في الشر- رآني أجتذب إليَّ من أجتذب منه؛ فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفه؛ ليخلوَ هو بمن اجتذِبه من يده.

ولقد حسَّن ليَ الانقطاع عن المجالس، وقال: لا يخلو من تَصنُّع للخلق.

فقلت: أما زخرفة الألفظ وتزويقها، وإخراج المعنى من مستحسن العبارة - ففضيلة لا رذيلة.

وأما أن أقصد الناس بما لا يجوز في الشرع -فمعاذ الله» [(١)]

إلى أن قال ﷺ: «وأما الانقطاع فينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال.

وأما تعليم الطالبين، وهداية المريدين فإنه عبادة العالم.

وإن من تغفيل بعض العلماء إيثارَه للتنفل بالصلاة والصوم عن تصنيف الكتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأن ذلك بذرٌ يكثر ريعُه، ويمتد زمان نفعه.

وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين:

أحدهما: حب البطالة؛ لأن الانقطاع عندها أسهل.

---

١ - صيد الخاطر ص٨٨.

والثاني: حب المِدْحَة؛ فإنها إذا توسَّمت بالزهد كان ميل العوام إليها أكثر.

فعليك بالنظر في الشَّرب الأول؛ فكن من الشَّرب المتقدم وهم الرسول ﷺ وأصحابه -رضي الله عنهم-.

فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلةُ المتزهدين والمتصوفه من الانقطاع عن العلم، والانفراد عن الخلق؟!

وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير، ونهيهم على الشر؟!

إلا أن ينقطع من ليس بعالم بقصد الكف عن الشر؛ فذاك مرتبة المحتمي يخاف شر التخليط؛ فأما الطبيب العالم بما يتناوله فإنه ينتفع بما يناله»[1]

٥٤- **الحذر من اليأس:** فربما بذل الواعظ نصحه، وحرص على هداية الناس.

وبعد ذلك قد لا يرى نتيجة الوعظ.

وهذه فرصة الشيطان التي تجعله يلقي في رُوع الواعظ أنْ لا فائدة مما تقول، وأنه خيرٌ لك أن تدع الوعظ.

فيحسن بالواعظ أن يتفطن لهذا المدخل، وأن يحسن ظنه بالله، وأن يستحضر أن الموعظة الحسنة والعمل الصالح -عموماً- لا يذهبان سدىً.

فإذا لم تظهر النتائج عاجلاً ظهرت آجلاً، وإذا لم يذهب الشرُّ كلُّه خف وقْعُه، ولم يستطر شررُه.

وربما لو تُرك الوعظ والإرشاد لتمادى الغافلون.

وكثيراً ما يستخف الناس بالأمر تلقى له الموعظة أو تؤلف فيه المقالة؛ فإذا تتابع الترغيب فيه، أو التحذير منه -وَلَوْ من الناصح الواحد- أخذ الناس

---

١ - صيد الخاطر ٨٩-٩٠.

يُعنون بشأنه، ويتداعون للعمل به، أو الإقلاع عنه.

وما سطع الإيمان في نفسٍ إلا كانت كالبلد الطيب ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾؛ فابذر -أيها الواعظ- في النفوس من الحكمة والموعظة الحسنة ما شئت أن تبذر؛ فلا تُريك إلا نيَّاتٍ صالحةً، وأعمالاً راضيةً.

ثم إن مبلغ جهد الإنسان إنما هو البلاغ، والهداية بيد الله -عز وجل-.

قال -عز وجل-: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ الشورى: ٤٩.

وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ البقرة: ٢٧٢.

وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ الشورى: ٤٩.

وقال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ يونس: ٩٩.

٥٥- أن يستشعر الواعظ أنه هو المقصود الأول من موعظته، وأنه مفتقر إلى الله -عز وجل-: فذلك يدعوه إلى ربط القول بالعمل، ويردعه عن التمادي في الإعجاب، ويبعثه إلى الانطراح بين يدي الله -عز وجل- وسؤاله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين.

كما أن ذلك يقوده إلى التواضع، والزراية على النفس.

وكل ذلك من أسباب توفيقه وتسديده.

فما أجمل أن يكون الواعظ كثير الانكسار والتذلل لله -عز وجل-.

وما أروع أن يستحضر معنى قوله -عندما يقول في مستهل موعظته-: «أوصيكم ونفسي بتقوى الله -عز وجل-».

ولقد كان العلماء الربانيون العالمون بالله وبأمره -عز وجل- يأخذون بهذه السيرة؛ فتراهم يستشعرون بأنهم أولى الناس بالتذكرة، وأنهم أخوف الناس على أنفسهم، وأرجاهم لغيرهم.

قال أبو حازم سلمة بن دينار ﷺ : «أفضل خصلة ترجى للمؤمن أن يكون أشد الناس خوفاً على نفسه، وأرجاه لكل مسلم».[١]

ويقول مخاطباً نفسه مرزياً عليها: «يا أعرجُ! ينادى يوم القيامة: يا أهل خطيئة كذا وكذا فتقوم معهم، ثم ينادي: يا أهل خطيئة كذا وكذا فتقوم معهم؛ فأراك يا أعرج تريد أن تقوم مع أهل كل خطيئة».[٢]

وقد رئي أبو الحسين الرازي ت ٣٠٤ ﷺ في المنام بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: «غفر لي بقولي عند الموت: اللهم إني نصحت الناس قولاً، وخنت نفسي فِعلاً؛ فهب خيانة فعلي لنصح قولي».[٣]

وهاهو ابن الجوزي وهو من أكبر أئمة الوعظ يكثر البكاء على نفسه، واستشعار تقصيره في جنب الله -عز وجل-.

يقول ﷺ : «إلهي! لا تعذِّبْ لساناً يخبر عنك، ولا عيناً تنظر إلى علومٍ تدُلُّ عليك، ولا يداً تكتب حديث رسولك؛ فبعزتك لا تدخلني النار».[٤]

ويقول مبتهلاً إلى الله -عز وجل- «ارحم عبرةً تترقرق على ما فاتها منك، وكبداً تحترق على بعدها عنك».[٥]

وفي كتابه صيد الخاطر نماذج كثيرة من هذا القبيل، وإليك طرفاً منها، يقول ﷺ : «إخواني! لنفسي أقول؛ فمن له شِربٌ معي فَلْيَرِدْ: أيتها النفس! لقد أعطاكِ الله مالم تؤملي، وبلَّغكِ مالم تطلبي، وستر عليك من قبيحك ما لو

١ - ٢- مواعظ الإمام سلمة بن دينار للشيخ صالح الشامي ص ١٧.

٣ - البداية والنهاية لابن كثير ١١ / ١٢٧.

٤ - ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ٤٢٢.

٥ - المرجع السابق.

فاح ضجت المشامُّ،[1] فما هذا الضجيج من فوات كمال الأغراض أمملوكة أنتِ أم حرة؟! أما علمتِ أنك في دار التكليف؟!

وهذا الخطاب ينبغي أن يكون للجهال فأين دعواكِ المعرفة؟!.

أتراه لو هبَّت نفخةٌ فأخذتِ البصرَ كيف كانت تطيب لك الدنيا؟!

وا أسفاً عليكِ! لقد عشيتِ البصيرة التي هي أشرف، وما علمت كم أقول: عسى، ولعل، وأنت في الخطأ إلى قُدام.

قرُبتْ سفينة العمر من ساحل القبر ومالكِ في المركب بضاعةٌ تربح، تلاعبت في بحر العمر ريحُ الضعف؛ فغرَّقتْ تلفيق القوى، وكأنْ قد فَصَلَتِ المركب، بلغتِ نهايةَ الأجل وعينُ هواك تتلفَّتُ إلى الصبا!

بالله عليك لا تُشْمِتي بكَ الأعداء!

هذا أقل الأقسام، وأوفى منها أن أقول: بالله عليك لا يفوتنَّكِ قدمُ سابقٍ مع قدرتك على قطع المضمار.

الخلوةَ الخلوةَ، واستحضري قرين العقل، وجولي في حيرة الفكر، واستدركي صُبابة الأجل قبل أن تميل بك الصَّبابة [2] عن الصواب.

واعجباً! كلما صعِد العُمُرُ نزلتِ! وكلما جدَّ الموتُ هزلتِ!

أتراك ممن خُتم له بِفتنةٍ، وقضيت عليه عند آخر عمره المحنة؟!

كان أولُ عُمُركِ خيراً من الأخير، كنتِ في زمن الشباب أصلح في زمن أيام المشيب... ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٣.

---

١ - المشام: الأنوف.

٢ - صُبابة الأجل: بقية العمر، والصَّبابة: الهوى.

نسأل الله -عز وجل- ما لا يحصل إلا به، وهو توفيقه، إنه سميع مجيب»[١]

وقال ابن الجوزي ﷺ: «ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس، وكم سالت عين متكبر بوعظي لم تكن تسيل، ويحق لمن تَلمَّحَ هذا أن يرجو التمام.

وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي.

ولقد جلستُ يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا مَن رقَّ قلبه، أو دمعت عينه فقلت لنفسي: كيف بك إن نجو وهلكتِ؟! فصحت بلسان وَجْدِي: إلهي وسيدي! إن قضيت عليَّ بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي؛ صيانة لكرمك، لا لأجلي؛ لأن لا يقولوا عَذَّبَ من دلَّ عليه.

إلهي قد قيل لنبيك ﷺ اقتل ابن أبيِّ المنافق فقال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[٢]

إلهي! فاحفظ حسن عقائدهم فيَّ بكرمك أن تُعْلِمهم بعذاب الدليل عليك[٣]، حاشاك والله يارب -من تكدير الصافي».[٤]

وقال ﷺ في موضع آخر: «تفكرت في نفسي يوماً تَفكُّرَ مُحَقِّقٍ فحاسبتها قبل أن تحاسب، ووزنتها قبل أن توزن؛ فرأيت اللطف الرباني.

فمنذ الطفولة وإلى الآن أرى لطفاً بعد لطف، وستراً على قبيح، وعفواً

---

١ - صيد الخاطر ٣٤٠-٣٤٢.

٢ - رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٦٥٨٣).

٣ - يعني ابن الجوزي نفسه.

٤ - صيد الخاطر ص ٣٩٧.

عما يوجب عقوبة، وما أرى لذلك إلا شكراً باللسان.

ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً، ولو كُشِفَ للناس بعضُها لاستحييت.

ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب حتى يظن فيَّ ما يظن في الفساق، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي وقعت بتأويلات فاسدة؛ فصرت إذا دعوتُ أقول: اللهم بحمدك وسترك عليَّ اغفرلي.

ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي.

ثم أنا أتقاضى القدرَ مراداتي، ولا أتقاضى بصبر على مكروه، ولا بشكر على نعمة؛ فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم، وكوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به، وقد كنت أرجو مقامات الكبار فذهب العمر وما حصل المقصود؛ فوجدت أبا الوفاء ابن عقيل قد ناح نحو ما نحتُ؛ فأعجبتني نياحته [١] فكتبتها ههنا.

قال لنفسه: يا رعناءُ! تقوِّمين الألفاظ؛ ليقال: مناظرٌ، وثمرة هذا أن يقال: يا مناظر، كما يقال للمصارع: الفارة.

ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء -وهي آخر أيام العمر- حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم مناظر، ثم يُنسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب، هذا إن تأخر الأمر إلى موتك، بل ربما نشأ شابٌّ أَفْرَهُ منكِ، فموَّهوا له، وصار الاسم له، والعقلاء [٢] عن الله تشاغلوا بما إذا انطووا نَشَرَهم[١]،

---

١ - يعني بكاءه على نفسه، ولومها لتقصيرها في جنب الله.

٢ - يعني بهم: الذين يعقلون عنه أمره ونهيه.

وهو العمل بالعلم، والنظر الخالص لنفوسهم.

أفٍّ لنفسي! وقد سطرت عدة مجلدات في فنون [٢] العلم، وما عبق بها ضيلة. [٣]

إن نوظِرَتْ شَمَخَتْ، وإن نوصِحَتْ تَعَجْرَفتْ [٤]، وإن لاحت الدنيا طارتْ إليها طيرانَ الرَّخَمِ، وسقطتْ عليها سقوطَ الغراب على الجيف؛ فليتها أَخَذَتْ أخذَ المضطر من الميتة، توفر في المخالطة عيوباً تُبلى، ولا تحتشم نَظرَ الحقِّ إليها، وإن انكسر لها غَرَضٌ تضجرت[٥]، فإن أمِدَّت بالنعم اشتغلت عن المنعم.

أف والله مني، اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها.

والله إن نَتَنَ جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب.

والله إنني قد بهرني حِلْمُ هذا الكريم عني؛ كيف يستُرني وأنا أتهتك، ويجمعني وأنا أتشتَّت؟! وغداً يقال: مات الحبر العالم الصالح، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني.

والله لأناديَنَّ على نفسي نداء المُكَشِّفين معائب الأعداء، ولأنوحنَّ نوح

---

١ - يعني إذا ماتوا أحياهم، وجعل الناس يذكرونهم.

٢ - لعله يشير إلى كتابه (الفنون) الذي بلغ ثمانمائة مجلد كما ذكر ذلك ابن رجب الحنبلي في كتابه ذيل طبقات الحنابلة ١ / ١٥٦.

٣ - يعني أنه ما استفاد مما علم، ولم يعلق به شئ من ذلك، وهذا من تواضعه.

٤ - يعني تكبرت واستنكفت عن قبول الحق.

٥ - يعني أن نفسه تضجر وتسخط إذا لم تأتها الأمور كما تريد.

الثاكلين للأبناء؛ إذ لا نائح لي ينوح علي هذه المصائب المكتومة والخلال المغطاة التي قد سترها مَنْ خَبَرَها، وغطَّاها من علمها.

والله ما أجد لنفسي خَلَّةً استحسن أن أقول متوسلاً بها: اللهم اغفر لي كذا بكذا.

والله ما التفتُّ قط إلا وجدت منه ـسبحانه ـ براً يكفيني، ووقاية تحميني مع تسلط الأعداء، ولا عَرَضَتْ حاجةٌ فمددت يدي إلا قضاها.

هذا فعله معي وهو ربٌّ غني عني، وهذا فعلي وأنا عبد فقير إليه!!

ولا عذر لي فأقول: ما دريتُ، أوسهوتُ، والله لقد خلقني خلقاً صحيحاً سليماً، ونوَّر قلبي بالفطنة، حتى إن الغائباتِ والمكنوناتِ تنكشف لفهمي.

فوا حسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا، وا حِرْمَاني لمقامات الرجال الفطناء، ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله، وا شَماتَة العدو بي، وا خيبةَ من أحسن الظن بي إذا شهدت الجوارحُ عليّ، وا خذلاني عند إقامة الحجة.

سخر ـوالله ـ مني الشيطان وأنا الفطِن.

اللهم توبةً خالصةً من هذه الأقذار، ونهضةً صادقةً لتصفية ما بقي من الأكدار، وقد جئتك بعد الخمسين وأنا من خَلَقِ المتاع، وأبى العلم إلا أن يأخذ بي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلةٌ إلا التأسف والندم؛ فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك؛ فاغفرلي

سالف فعلي ».[1]

فهذا كلام ابن عقيل -رحمه الله- وهذه زرايته على نفسه مع أنه هو هو في العلم والفضل والتفنن، بل يكفي أنه كتب كتاب (الفنون) الذي بلغ ثمانمائة مجلد.[2]

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ وهو من هو في الزهد والعلم والورع والعبادة والجهاد هاهو يضرب مثالا رائعاً في المسْكَنة، والا فتقار، والتذلل لله -عز وجل- .

يقول تلميذه العلامة ابن القيم ﷺ في معرض حديث له في منز لة الخشوع في كتابه الماتع مدارج السالكين: « فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة، والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يَصِحَّ له بعدُ الإسلام حتى يدَّعي الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً: مالي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدِّي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

---

١ - صيد الخاطر ص٧٣٦ - ٧٣٩.

٢ - انظر ذيل طبقات الحنابلة ١ / ١٥٦.

ويعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسيكين في مجموع حالاتي

أنا الظلومُ لنفسي وهي ظالمتي ... والخيرُ إن يأتِنا من عنده ياتي

لا أستطيع لنفسي جَلب منفعةٍ ... ولا عن النفس لي دفع المضراتِ

وليس لي دونه ربٌّ يدبرني ... ولا شفيعُ إذا حاطت خطيئاتي

إلا بإذن من الرحمن خالقِنا ... إلى الشفيع كما قد جا في الآياتِ

ولست أملك شيئاً دونه أبداً ... ولا شريكٌ أنا في بعض ذراتِ

ولا ظهير له كي يستيعن به ... كما يكون لأرباب الولاياتِ

والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبداً ... كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي

وهذه الحالُ حال الخلقِ أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتي

فمن بغى مطلباً من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي

والحمد له ملءُ الكون أجمعه ... ما كان منه وما مِنْ بَعْدُ قد ياتي [1]

---

١ - مدارج السالكين لابن القيم ٥٢٠ ـ ٥٢١.

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، وبعد:

ففي خاتمة التطواف في تفصيل أدب الموعظة أتوجه بالشكر إلى المولى -جل وعلا- على تيسيره وإعانته.

وأسأله -عز وجل- أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه، نافعاً لعباده، موافقاً لسنة نبيه ﷺ.

وبعد شكر الله أشكر كل من أعان على هذا العمل بمشورة، أو تصحيح، أو مراجعة، أو ما جرى مجرى ذلك، وأسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء وأن يجعل ذلك ذخراً لهم يوم يلقونه.

كما أعتذر للقراء الكرام إن كان هناك من إثقال، أو إملال، وآمل منهم موافاة أخيهم بما يرونه من ملحوظة، أو زيادة فائدة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

فهرس